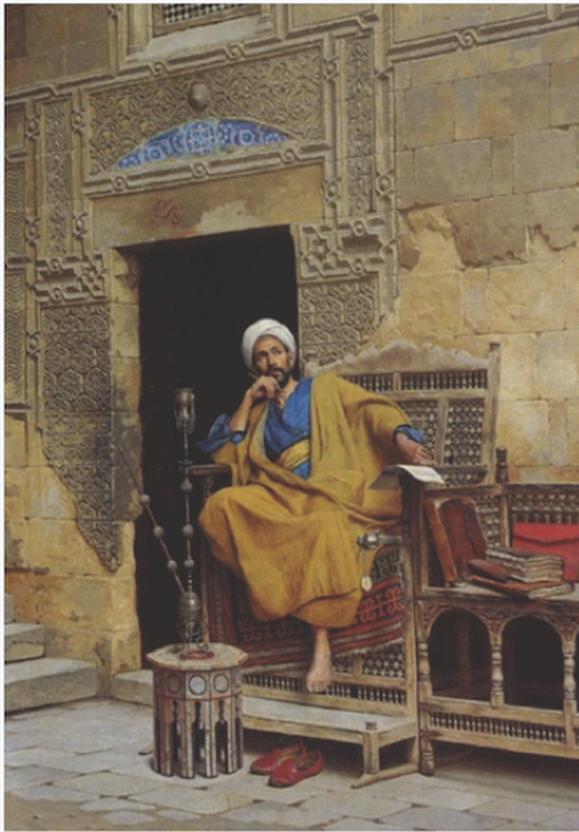




الدكتور محمد راجوادی

لِحَقْدِ عَلِيٍّ الذَّالِي

صراع السلطة والهوية في مجتمع إسلامي



ظَاهِرَةُ الْحَقِّ عَلَى الذَّالِمَاتِ

صراع السلطة والهوية في مجتمع إسلامي

الدكتور محمد راجوادی

ظَاهِرَةُ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِنِ

صراع السلطة والهوية في مجتمع إسلامي



ω

الطبعة الأولى
م 2020 هـ - 1441

رادمك -- ISBN
978-625-7810-68-5



للطباعة والنشر والتوزيع

هذا الكتاب

نناقش في هذا الكتاب ظاهرة عربية حديثة متفردة أسميناها ظاهرة الحقد على الذات ، وهي في جوهرها لا تعدو أن تكون صورة من صور الحرب على الهوية ، يقوم بها بعض أصحاب السلطة من أجل استرضاء أصحاب النفوذ في المجتمع الدولي المعاصر، فيضحون عن عمد ومن دون وعي بعوامل القوة الذاتية من أجل التوافق غير المحبب مع أعداء يصرحون بعداوتهم العميقة لهم ولهويتهم على الرغم من كل ما يبذلونه من أجل الحصول على رضاهم.

ومع أننا نؤمن أن للسلطة كل الحق في أن تمارس ما تراه صوابا فإننا لا نملك أن نخفي عجبنا من أن تمتد التنازلات إلى الهوية نفسها، من غير اتعاظ بما حدث على مدى التاريخ حين فقدت السلطة وجودها بفقدانها لكياناتها المادية (بعد المعنوية) عندما تخلت عن هويتها، ونحن لا نناقش هذه القضية من خلال التاريخ مباشرة ، وإنما بمحاولة للدراسة الاسترجاعية العميقة للظاهرة فنبداً في الباب الأول بطرح السؤال عن الإرادة الفردية ومدى سيطرتها على الهوية وعن مساحات الاختيار في الهوية السياسية ونصل في الفصل الثاني إلى القول بأن إرادات الشعوب ليست صلصالا في يد القوى الكبرى ثم نعمق فهم فكرة التنكر للهوية من خلال قصة فردية حقيقية أتيج لنا أن نعيش بعض فصولها .

وفي الباب الثاني من هذا الكتاب ننتقل إلى الحديث عن السؤال الذي يطرح نفسه حول الدور الذي لعبته الانقلابات العسكرية في استئصال الأمل في وجود أو تنامي العملية الديمقراطية في البلاد العربية ولهذا نناقش في الفصل الرابع أزمة الديمقراطية العربية المعاصرة من زاوية لم تُقارب من قبل بهذا الوضوح فنتناول المصطلح والعداء للمصطلح والمزاوجة بين الفاشية والعسكرية والعقيدة الخاطئة التي رسختها الناصرية في أن التنمية تتطلب التضحية بالديموقراطية ، كما نناقش الدور الذي لعبته التنظيمات السرية في وأد الديمقراطية ، وفي الفصل الخامس نناقش الأثر الذي تحدثه الثورات المضادة في مستهدفاتها نفسها بسبب لجونها إلى عناصر تشويه الثورة الحقيقية ونعرض بسرعة لبعض هذه العناصر المتمثلة في تشويه الثائرين والحديث عن التمويل الأجنبي أو الخارجي ، والحرص على تنازع النقيضين ، وإصاق الإرهاب بالثورات ، ونزع صفة الشرعية عن حركة جماهير الثورة، ونتناول في الفصل السادس الإجابة عن سؤال المستقبل ماذا بعد أن فقدت الأنظمة العسكرية مبررات وجودها.

وفي الباب الثالث نناقش ظاهرة الازدواج الحتمي بين الديكتاتوريات والعسكرة، بدءاً بحالة المشير عبد الحكيم عامر في الفصل السابع، ومروراً بما اقترن بالبدايات العربية في الحروب المعاصرة من تأثير عميق على الهوية (الفصل الثامن) وانتهاء بعشق الديكتاتوريات العسكرية للفشل (في الفصل التاسع).

وفي الباب الرابع نناقش الهوية في ظل التقلبات العسكرية، فنبدأ في الفصل العاشر بالحديث عن أثر الرئاسة الأمريكية ونتحدث في الفصل الحادي عشر عن عنصر الجاسوسية بينما نتحدث في الفصل الثاني عشر عن جهلنا بما يفترض أنه في صفنا من أن إسرائيل تعيش أسوأ حالاتها لكننا لا نتصور هذا في ظل الانسحاق.

يناقش الباب الخامس فكرة تشكيل الهويات، فنبحث في الفصل الثالث عشر عن أنساق الوحدة الأوروبية، مقدمين نموذجاً تفصيلياً للاستهداء على محاور متعددة، وندارس في الفصل الرابع عشر قصة الخروج البريطاني وكيف كانت الثورات العربية المضادة سبباً من أسبابه العميقة ثم نلتقي في الفصل الخامس عشر مع ما يبدو في صورة من صور الاستقرار الناضج الذي يتمثل في السياسة الأردنية.

وفي الباب السادس نتحدث عن تجارب ملهمة لمقاربة قضية الهوية فنتعلم في الفصل السادس عشر من تجربة الملك البلجيكي الذي حل مشكلة السلفية مع الديمقراطية، و نرصد في الفصل السابع عشر تجربة الملك السعودي في احترام التقاليد و نستعيد في الفصل الثامن عشر ما احتفظت به ذاكرة التاريخ من تمجيد لتجربة الرئيس الفرنسي ديغول في التغلب على نظرية المارشال بيتان في الاستسلام.

وفي الباب السابع نتعمق التفكير في الأسباب والنتائج التي حكمت انطباعاتنا و انطباعات معاصرنا عن عدد من أبرز التجارب العربية المعاصرة الحاضرة من خلال أربعة فصول متتالية تحاول تلمس الصواب و آفاق الاختيار فيما جرى على يد السعوديين الجدد وحلفائهم من المتحمسين لتغيير الهوية.

وليس لنا أن نقول بعد كل ما أثبتناه من هذه الآراء والمقاربات إلا أن هذا ما اجتهدنا به من بعض ما فتح الله علينا به .

وكلي دعاء إلي الله أن يوفقني إلي تقديم ما تبقى من أعمالي ، وقد طال العهد بتجاربه المطبعية في ظل غربتي ومرضي و تشردي و استيحاشي ، والوقت لا يسعفني، والجهد يتضاءل، والقلب يئن ، والنظر يكل ، والعقل يتشتت ، والذاكرة تتبدد ، والنفس ينقطع ، والأمل ينقطع ، والعمر قصير، ولكن أملي كبير في فضل الله جل جلاله وكرمه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل ، ان يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم .
والله سبحانه وتعالى أسأل أن يقيني شر الهوى، وأن يقيني شر التعجل، وأن يقيني شر
الانخداع، وأن يرزقني الغنى والهدى والعفاف والتقوى، وأن يتجاوز عن سيئاتي، وأن يتغمدني
برحمته، وأن يديم عليّ توفيقه، وأن يجعلني قادرًا على شكر فضله.
والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامي،
وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.
والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حبيبت، وأن يحفظ عليّ عقلي
وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني.
والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقوى،
والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان
العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.
والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني
لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره
وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة،
والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني،
ونعمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ، بالطبع وبالتأكيد،
كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادي

الباب الأول

هل تتحدد الهوية بإرادة فردية؟

الفصل الأول

مساحات الاختيار في الهوية السياسية

الهوية والاستقرار

يكاد الباحثون المعاصرون في علم الاجتماع السياسي يتجاوزون ما يؤمنون به بحكم دراستهم للاجتماع عندما يعالجون قضية الهوية السياسية لنظام من النظم السياسية التي تحاول فرض رؤية ما على مجتمع عرف طريق الاستقرار من خلال هويته التي ميزته وتميز بها. وفي رأينا المتواضع فإنه يبدو من المستحيل في عصر الوعي المتزايد أن تنجح جهود السلطة في فرض إيديولوجية على الهوية أو في نفي عنصر من عناصر الهوية مهما بدا العائد متاح مغريا أو قادرا على الإقناع والتمكين لنفسه ، ذلك أن التكوين العقلي للإنسان لا يستمد كتالوج تشغيله من الكتلوجات المترافقة مع التكنولوجيات الحديثة ، وإنما هو يستمد من أوليات الفهم الإنساني الذي بدأت به الحياة الإنسانية على الأرض منذ استخلف الله الإنسان فيها . و لعلنا نبدأ بأن نضرب مثلا صارخا لهذا التناقض قبل أن نتدبر في احتمالات نجاحه في أحوال محددة.

ثورة شيوعية أمريكية؟

هذا المثل الصارخ يطرح نفسه من خلال السؤال عن إمكانية تطبيق الشيوعية أو الأخذ بالنظام الشيوعي في الولايات المتحدة الأمريكية ؟ الإجابة معروفة إذا كنا نتحدث عن الحقبة التي ننتمي إليها زمنيا الآن فهل يمكن أن تختلف الإجابة لو كنا نتحدث عن ١٩١٨ أو ١٩١٧ ؟ هل كان من الممكن أن تنجح ثورة شيوعية في الولايات المتحدة الأمريكية وتتولي مقاليد الحكم، وتنهى وجود طبقة الرأسماليين الكبار، وتستولي على ممتلكاتهم ، وتعيد توزيع الثروة ، وتمكن للعمال من مفصلات الدولة وقرارتها ، وتستغني عن نظام الحزبين بتنظيم سياسي واحد لا يقبل بالتعددية ولا بتداول السلطة، وتخرج ملكيات الأراضي الزراعية من يد أصحابها إلى نظام التعاونيات أو السوفيات . الخ . و مع أننا لن نعدم من يكابر فيقول إن هذا كان ممكنا ، فإننا نستطيع أن نتصور حقيقة أن الاحتمال نفسه لم يكن واردا لأن الشيوعية كانت تقدم نفسها على أنها

حل لمشكلة أو مجموعة من المشكلات ، بينما لم تكن الولايات المتحدة تعاني من أي من تلك المشكلات .

هناك دليل مواز من تاريخ الأدب ، وهو أننا لا نجد في أدباء أمريكا من يناظر سلوك ليو تولستوي في نزعه الإنسانية تجاه الفلاحين العاملين في أرضه ؛ ذلك أن بنية علاقات العمل في الأراضي الزراعية الأمريكية كانت مختلفة تماما ، كما كانت بعيدة عن أن تؤسس لوجود ما يسمى بطبقة عمال الزراعة حتى إن كان هناك عبيد للحقل.

الموروثات

أنتقل بالكاميرا التسجيلية إلى إقليم الصعيد أو الوجه القبلي في مصر لنكتشف بوضوح أن الموروثات (التي يمكن من دون مبالغة وصفها بأنها مورثات جينية) تمنع أبناء الصعيد من قبول العمل في مهن معينة على الرغم من احتياجهم المادي للدخل الذي تؤمنه هذه الوظائف وبخاصة في ظل ارتفاع معدلات الفقر إذا ما قورنت بمعدلاته في الوجه البحري ، لكن الموروثات تلزم أصحابها باختيارات معينة واقتناعات محددة فيما هو متاح وقتيا أو مكانيا من فرص العمل.

أنتقل مرة ثالثة إلى سؤال كاشف عن السر فيما حدث في ميراث الحرب العالمية الثانية الذي انتهى بتكوين ما نعرفه من الدول والجمهوريات ، ثم إذا بنهاية الحرب الباردة أو ما واكب نهاية الحرب الباردة يقدم صورة لم تكن متوقعة من التناقض في تحقيق الذات ما بين الاندماج والتفتيت : حيث اتحدت الدولتان الألمانيان بسهولة ، على حين انفرطت يوغوسلافيا (التي كان اسمها الرسمي الاتحاد اليوغسلافي) بإجراءات متعاقبة إلى سبع دول متميزة بتلقائية متتابعة لم تفلح ترسانات الأسلحة ولا مؤامرات الديبلوماسية في إيقافها ولا في تغيير مسارها .

تبخر الأوهام

وهنا كان من الواضح لكل ذي عينيين أن كل الأوهام التي عاشها الديكتاتور (العادل!) تبتو وعيَّشها لمواطنيه بالحديد والنار قد تبخرت في درجة الحرارة العادية ، ولم تكن بحاجة إلى درجة من درجات الحرارة الخاصة بأفران الحديد ، وإذا سألتني عن السبب الأول الذي جعل الأمور تسير في هذا الاتجاه فلن أكابر بأي قول أيديولوجي ، ولكنني سأعترف بالسبب الحقيقي الذي أفنى غيري عمره من دون أن يعترف به وهو مردود ثورة المعلومات .

لست أبالغ إذا قلت بالتأثير المنفرد لهذه الثورة التي لم تكن في بداية التسعينات من القرن الماضي قد وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من سطوة مطلقة؛ وقد دخل هذا التأثير إلى الحياة السياسية من زاوية الوعي ، وهي زاوية شبيهة بنافذة الشمس المشرقة التي تغمر المساحات الكبيرة

بالضوء مهما كانت النافذة صغيرة ؛ وقد عاش المفكرون المعادون لحصرية السلطة قرونا طويلة يبحثون عن نافذة في جدران الطغيان إلى أن جاء عصر المعلومات ففتح لهم بدلا من النافذة الواحدة نوافذ تستعصي على العد .

الطبقة العاملة

مرة رابعة أنتقل بالكاميرا التسجيلية إلى وضع مقلوب الاتجاه ، وهو الوضع الذي أتيح فيه لطفرات الثروة البترولية أن تساعد بعض الدول على أن ترسم حدود الحياة الاجتماعية بما يحفظ للدولة الكبيرة أكبر قدر من الاستقرار الاجتماعي والفكري بناء على أسس علمية (لم تمنع في أن تصف نفسها من باب البرجماتية الذكية بأنها ملتزمة بالشرعية) و وصل الامر فيه بتوصيات الخبراء الاجتماعيين الأمريكيين المتمرسين إلى التوصية بالحرص على تعويق الظروف المتهيئة لقيام أو انتعاش طبقة عاملة وطنية ، وذلك بالاعتماد التام على العمالة الوافدة في كل مجتمعات الصناعة الكبيرة .

تقليل خطوط الاتصالات

كما وصل الأمر إلى الحرص على التقليل التام من وسائل المواصلات العامة مع تسهيل ازدهار تملك وتشغيل وتموين واستبدال السيارات الخاصة ، وقد امتد التقليل من وسائل المواصلات العامة إلى السكك الحديدية التي تأجل دخول عصرها حقبة بعد حقبة إلى أن حكمت الظروف.

لم تتوقف النصائح الذهبية للخبراء الأمريكيين عند هذين النطاقين ، وإنما امتدت إلى ما قد لا يتصوره المراقبون من الحرص على تقليل خطوط الاتصالات السلكية إلى أقصى حد ممكن مع تعسير الإفادة منها ، بحيث لم يتناسب النمو فيها مع طفرات التقدم التكنولوجي والمعيشي التي شهدتها تلك الدولة الكبيرة ؛ وقد كانت مثل هذه السياسات المتحكمة بالحد من انتشار الاتصالات السلكية ممكنة وقابلة للتمرير ، بل وللقبول بها ، فلما جاءت إحدى مراحل ثورة المعلومات المتمثلة في الهوائيات الخليوية انهارت هذه السياسات القديمة من دون أن تترك آثار انهيارها على الأرض ، وإنما تبخرت هذه الآثار في الفضاء لا في الهواء فحسب ، على نحو ما وصفنا به ما حدث في تجربة جوزيف بروز تيتو .

نظم التأمين الصحي

أعود بالكاميرا التسجيلية مرة خامسة إلى نطاق محدود هو نطاق السياسات الإدارية المنظمة لإحدى الخدمات الاجتماعية العامة في عالمنا المعاصر .

يستطيع القارئ أن يدرك بسهولة أن كل الأيدولوجيات الحاكمة لنظم التأمين الصحي والمفتونة بتجربة الولايات المتحدة الأمريكية (غير كاملة التغطية للمجتمع) سرعان ما فشلت تماما ، على حين نجحت واستمرت التجارب المستلهمة للنظامين البريطاني والفرنسي اللذين يمثلان تعبيراً مخلصاً عن روح العدالة الاجتماعية كما يفرضها الدين الإسلامي ويدعمها بعيداً عن نظريات شراء الخدمة وتأليف الخدعة وإفساد الذمة التي واكبت التطبيق المتعجل لنظريات راققت في عيون مهنيين من أصحاب القرار فظنوا أن بإمكانهم الانتقال (ولا نقول ما يقولونه من لفظ الارتقاء) إلى هوية تتناسب فقط مع تصوراتهم القاصرة والمحدودة للمستقبل .

الوعي المتزايد يمنع فرض إيديولوجية

وكما قلنا في البداية فإنه على هذا النحو من الفهم المستوعب لآلية كل تغير سياسي ، فإنه يبدو من المستحيل إلى درجة الصرامة في الاستحالة أن نلجأ في عصر الوعي المتزايد إلى فرض إيديولوجية أو نفي عنصر من عناصر الهوية مهما كان العائد المتاح مغرباً أو قادراً على الإقناع والتمكين لنفسه ، ذلك أن التكوين العقلي للإنسان لا يستمد كتالوج تشغيله من الكتالوجات المترافقة مع التكنولوجيات الحديثة ، وإنما هو يستمدّها من أوليات الفهم الإنساني الذي بدأت به الحياة الإنسانية على الأرض منذ استخلف الله الإنسان فيها .

لا شك في أن أوليات الفهم الإنساني الذي بدأت به الحياة الإنسانية أبسط بكثير من الارتقاء الذي جاءت به الأديان في تعاقب مراحلها .

صياغة السلام النفسي والمجتمعي

لا يستقيم فهم الهوية من دون إيمان بهذه الحقائق البديهية ، كما أن الإيمان بها لا يتعارض مع إيماننا العميق بكل ما في إسلامنا (مهما تعددت مذاهبه) من قدرة على صياغة السلام النفسي والمجتمعي ؛ ولهذا السبب وبعيداً عن أن نطلب ممن يناقشوننا أن يؤمنوا بقيم الإسلام أو بهويته بدلاً من إصرارهم على تغييبها فإننا نستطيع أن نقنعهم بصوابها من خلال القيم الفلسفية البسيطة والحاكمة التي علمها سقراط لأفلاطون وأرسطو وتلاميذهم ، وهي القيم البسيطة المتبسطة التي لا تزال قادرة على أن تفصل بين الحق والباطل في كل قضية ، وكل ميدان ، و على سبيل المثال ، فإنه ليس سرا أن كل دعاوى الهويات العلمانية تتهاوى أمام أصول الفلسفة اليونانية القديمة ، حتى إن وجدت من يقتنع بإمكانية تعميمها أو استبدال الإسلام باللجوء إلى ظلها غير الظليل .

الفصل الثاني

إرادات الشعوب ليست صلصالا في يد القوى الكبرى

النحت في الصخر

في أحيان كثيرة تنجح حملات الحروب النفسية الدائبة في أن تقنع الراي العام في الشعوب المظلومة بسطوة وقوة وحتمية جبروت الإمبريالية ، السافر القادر ، على رسم حدود الأوطان وتطبيع إرادتها على نحو ما يريده المستعمر أو على نحو ما تقرره توجّهات ساسته أو نزواتهم أو تحالفاتهم المرحلية أو تطورات استراتيجياتهم المفصلية ؛ ومع تكرار سيطرة هذه الفكرة واستحواذها على الراي العام ولغة الخطاب الإعلامي / السياسي الموجه للشعوب المستضعفة ، فقد تحولت معارضتها الجادة إلى نوع من النحت في الصخر ، وهكذا ضعفت القوة التي تحلت بها (في العادة أو بحكم الطبيعة) عناصر كثيرة من مقومات المناعة الموروثة لدى الشعوب المستضعفة والأوطان المستهدفة على حد سواء.

بيد أن الحاجة البشرية إلى التدافع أو الصراع الوجودي متمثلة في حروب البقاء استبقت للبشرية درجات معقولة من الحرص الصادق على احترام الذات والهوية ، و خلقت من آليات التفاعل وردود الفعل ما مكّن الإنسانية نفسها على مدى تاريخها الطويل من أن تتجنب الانسحاق لقوة العتاد الحربي وهو الانسحاق الكفيل نظريا بنهاية البشرية والجنس البشري.

ومع هذا ، فإن طموحات القوى التوسعية كانت (ولا تزال) تدفع بالصراعات المتجددة إلى زوايا و كواليس الحروب النفسية التي تجعل فكرة الانهزام تحت شعار الاعتدال الذكي بمثابة أحد البدائل غير المستبعدة ، وهكذا كانت فكرة صلصالية الدول الصغيرة تعود من أن لآخر لتظل برأسها في بعض المواقف التي بدت للمتعاملين معها مستعصية على الحسم ، ومستعصية أيضا على التفاوض ، وكانت هذه الفكرة ، وهذا هو موطن الاعتبار ، تلقى قبولا لدى المؤمنين أو المقتنعين بصحة نظرية المؤامرة.

أكذوبة التصلصل

ومع أن التاريخ علمنا من خلال وقائعه المتعددة ومساره المتصل أن هذه الفكرة أي فكرة الصلصالية (أو التصلصل أو القبول للتشكل) لا تعدو أن تكون أكذوبة كبرى ، حتى وإن كانت بعض مكوناتها قد أضحت بارزة المعالم والتضاريس بصورة واضحة في حدود و كيانات الدول

الحديثة التي كانت قد بدأت تتشكل بوضوح عقب الحربين العالميتين الأولى والثانية وتتصور نفسها كما يتصورها غيرها مكرسة للخلود والتمتع بوجود وحدود وسيادات.

بيد أن المعضلة الحادة التي واجهت فكرة تشكيل كيانات الدول بقرارات دولية أو فوقية تمثلت في عدم الاقتناع الذاتي أو انعدام الرضا الداخلي ، إذ أن فكرة التشكيل التوافقي ناقضت نفسها بنفسها وجاءها التآكل من داخلها ، بل بلغ الأمر عند معارضي آلية التشكيل أن اعتبروا التكوين المتشكل مرتبطاً بشخص من أمته ، ومستدعي للزوال أو للانفصام بعد وفاة ذلك الديكتاتور الذي أمته ؛ وتنبنا الأدبيات السياسية (بل و الروائية أيضا) في الدول التي رفضت قبول استمرار التكوين المتشكل بالسياسة أو الأيدولوجيا المهندسة حدوديا أن عامة المواطنين في هذه الدول ومن دون الانخراط في برامج تربية سياسية أو مدنية كانوا واعين تماما للفكرة القائلة بأن وجود مكون ما في أي تشكيل سياسي لا يعني سيطرته ، وإلا كنا كمن يقول عن البيت الأبيض إنه كيان من اللون الأبيض فحسب ، مع أن الأبيض ليس إلا لون الطلاء الظاهر لبيت حجري خراساني مؤثث يرى الكثيرون أن قلبه في معظم أوقاته مفعم بالسواد.

الاختراق الفكري بطيء المفعول

ومن العجيب مرة أخرى أن أكثر من يعتقدون في صلصالية الدول من بين سكان منطقة الشرق الأوسط التي نعيش فيها هم المتدينون السلفيون (أو الأصوليون) المتأثرون بالاختراق الفكري بطيء المفعول من الذين لا يدركون طبيعة الاختراق الفكري ولا خباثته ولا أساليبه ، وهؤلاء كما نعرف هم أنفسهم المكونون الفاعلون للطوائف الدينية المتكررة في كل الأديان والمذاهب ، والتي تتخذ في خطابها المرجعية المتماسة مع نصوص الدين الظاهرية أو الشكلانية، ومع عناصر الفضيلة التي ترفع راية أفضلية السلفية أو تفوق الأصولية ، وترفض كل ما من شأنه أن يقارب بين أوليات الماضي وآليات الحاضر ، ومن ثم فإن هؤلاء يرحبون فجأة بما هو جاهز على أيدي غيرهم ، و كأنهم يرحبون ضمائرهم من التورط في التشكيل الفاعل أو المتفاعل الذي هو في نظرهم عمل لا أصولي.

والواقع أن التاريخ المعاصر بسخونته وحرارته وغيومه ورياحه قد علمنا أن نظرية التكوين المتشكل بالسياسة شهدت انهيارها المدوي بدون سابق إنذار ، وكان السبب في غياب الإنذار هو الاعتماد على فاعلية وكفاءة ذلك الستار الحديدي الذي اقترن وجوده هو نفسه بوجود هذه النظرية ثم انهيار معها، وقد جاء هذا الانهيار على صورة لم تستطع كل مراكز الأبحاث أن تتنبأ به أو أن تتوقعه أو أن تتوقع سرعته ، لكن الصورة نفسها كانت هي الطبيعة الفيزيقية الملازمة لكل

الانهيارات في كل الماديات ، وهكذا فإنه في وقت واحد تقريبا حدثت الانفراطات الثلاثة في الاتحاد السوفييتي والاتحاد اليوغسلافي و حلف وارسو ؛ ومع أن جوزيف بروز تيتو رمز الاتحاد اليوغسلافي كان قد توفي في ١٩٨٠ ، فإن أحدا لم يكن يصدق نبوءته المتوقعة لانهيار الاتحاد اليوغسلافي بغيابه ، وعجزه هو نفسه عن أن يجد خليفة حقيقيا له ، لكن هذا هو ما حدث بصرف النظر عن اعتقاد تيتو في تأله أو عدم اعتقاده في هذا التأله.

نسيج القماشة السوفيتية

وقل مثل هذا فيما يتعلق بالزعيم السوفييتي بريجنيف الذي كان رمزا متجسدا للموت البطيء أو كان رمزا دالا على الجمود المستमित، ومع هذا فإن غيابه سرع وعجل من معدل القبول بالانهيار والتفكير فيه والعمل من أجله ، وقد حدث هذا تحت شعارات براقية لم تنتبه إلى أن إتمام صناعة نسيج القماشة السوفيتية لم يتم ولم يتحقق إلا على أشلاء الملايين من البشر الأبرياء الذين لم يكن لهم ذنب ولم يتحقق لذرياتهم أي عائد من صناعة هذا النسيج السوفييتي العريض.

بعيدا (في الظاهر) عن هذه الدروس الواضحة الدلالة (وقريبا تماما من جوهرها) فإن العقول المعنية بمستقبل منطقة الشرق الأوسط تحاول الآن على مضض و بشيء من الأرق أن تحل مشكلاتها السياسية و النفسية و النفوذية بمحاولة اتباع أي نموذج من نماذج إعادة التشكيل ، على الرغم من الاستحالة الظاهرية لنجاح مثل هذه الحلول في العصر الذي نعيشه ، والذي تحولت البشرية فيه إلى قرية صغيرة ، هذا فضلا عن أن المشكلات البنوية التي تعانيها المنطقة لا ترتبط في تفكيكها بإعادة التشكيل ولا بإعادة النظر في الديموجرافيا الحاكمة.

تجارب الحياة المعاصرة

ويبدو لي بوضوح وبلا مبالغة في التبسيط أو الاختزال أن السبب الرئيسي في ظهور الدعوة إلى مثل هذه الحلول يكمن في سبب طريف ، وهو أن الخبراء المعنيين بما وراء الكواليس لا يستحضرون من ذاكرتهم تجارب الحياة المعاصرة ، وإنما يستحضرون ما درسوه من كتب تناولت حولا قديمة لمشكلات أقدم ، و ذلك لأنهم ، لأسباب متعددة ، لم يطوروا معرفتهم المنهجية بالمشكلات الحديثة نسبيا ، ولا بحلولها غير التقليدية التي لم تكن معروفة في الوقت الذي كتبت فيه المراجع التي يعتمدون عليها في التشخيص و الفهم و رسم خطط العلاج.

لا أريد أن أقحم على القارئ كثيرا من أمثلة الطب والعلاج ، ولكنني أكتفي بنموذج واحد أخصه بطريقة مبسطة (وان كانت غير دقيقة تماما) ، وهو الحالة التي كانت تشخص على أنها ورم المعدة الخبيث ، وكانت أفضل النصائح الطبية المخلصة تتوجه نحو حث المريض على

المسارعة باستئصال هذا المرض الخبيث الذي كان مساره السريع يدفع بالمصاب به إلى الوفاة ؛
ثم جاء عصر من البحث الطبي الناضج أثبت أن هذا المرض في بداياته لا يتعدى أن يكون التهابا
قاسيا وخطرا يستأهل العلاج السريع و المكثف ، لكنه لا يستدعي (ما كان يستدعيه من باب
الروتين) الاستئصال ولا الجراحة.

تغيير الخبراء أم السياسيين

والحق أن المشكلات الراهنة في منطقتنا لا تبتعد في حقيقتها عن هذه الصورة التي لا تتطلب
في المقام الأول تغيير السياسات ولا حتى السياسيين ، وإنما تتطلب في المقام الأول تغيير الخبراء
، وتطوير طريقة الاستماع لهم وإلى نصائحهم ، فلربما كانت بعض المشكلات هي الحل الأمثل
لمشكلات أخرى تبدو مستعصية على الحل ، ولربما كانت بعض الحلول المفضلة أو المطروقة
هي نفسها ما صعّب حل المشكلة أو عقدها ، وهذا هو موضوع حديث آخر بإذن الله .

الفصل الثالث فكرة التنكر للهوية

أبدأ بالإشارة إلى أننا نعرض القضية الجوهرية في هذا الفصل من خلال قصة حقيقية حافلة بالدراما ، سنتجنب رسم بعض تفاصيلها العاطفية و الانفعالية ، لأن ملامحها الفكرية التي سننقلها بأمانة تنبئ بها بكل وضوح.

الهروب من التجنيد الإجباري

عرفت فصول هذه القصة على مدى سنوات ، ففي بداية السبعينيات كان الشبان المصريون اذا رزقوا فرصة للهجرة خارج مصر انتهبوها للخلاص مما كانوا يعتقدون فيه من معاناة الدخول في معمة التجنيد الإجباري التي كانت تستولى على أبناء الوطن في فترة عنفوانهم فتتركهم بلا عمل حقيقي إلا اليأس من المستقبل والبكاء الحار على اللبن المسكوب في ١٩٦٧... لم يكن أغلب الذين يفكرون هكذا يصدرن عن خيانة أو نقص في الوطنية ، وإنما عن حب للنفس واستبصار للواقع ، ومن هؤلاء كثيرون من الذين يحتلون صدارة المجتمع الآن في مجالات لا توحى لمن يشاهد نشاطهم أن يفكروا في أن هؤلاء هربوا من مصر هروبا من التجنيد الإجباري ولم يعودوا إليها إلا بعد صدور قانون في ١٩٧٩ يسوي أوضاعهم بدفع الغرامة ، مع استبقاء بعض العقاب من قبيل ألا يُدرجوا في قوائم تعيين الخريجين في وظائف الحكومة ، وهي الميزة التي كانت تشترط للحصول عليها أداء الخدمة العسكرية أو الإعفاء منها .

أذكر من هؤلاء فنانا كانت موهبته قد بدأت في الظهور فلما استوت وهو في الخارج قرر أن يرتبط بإحدى جاراته في مصر فسافرت إليه وأتما الزوجية خارج الوطن ، على أن يعود إلى مصر بعد أن تذهب لجنة تسوية الأوضاع إلى أوربا وتبرئ ذمته ، بحيث لا يتعرض للقبض عليه حين يعود إلى المطار ، ومن نافلة القول أن أذكر أن التسوية كانت تشترط أن يكون الهارب قد جاوز سن الطلب للتجنيد التي كانت في حدود سن الثلاثين وان كنت لا أذكرها بالتحديد.

أتيح الفرصة لواحد من أبناء الطبقة المتوسطة الذين أتموا دراستهم الجامعية لتوهم للوجود في فرنسا ففكر في ألا يعود ، وأن يعتبر هاربا من أداء الخدمة العسكرية ؛ ولم يكن يعرف الفرنسية ، لكنه سرعان ما تعلمها ؛ ولم يكن يملك من مهارات الحياة السريعة إلا قيادة السيارات ، فآثر أن يعمل من فوره سائقا لسيارات التاكسي ؛ وسرعان ما أحب فتاة فرنسية ففضل أن يتزوجها ؛ ووجد أن جنسيته المصرية تمثل عائقا في الثقة به ، ففضل أن يمزق جواز سفره نهائيا ؛ ولما كان سيبدأ

حياة جديدة باسم يحدده هو ، فقد أثار أن يتسمى باسم مسيحي قح مع أن اسمه الأول كان اسما محايدا يستعمله المسلمون والمسيحيون واليهود ؛ وفي خانة الديانة اختار الكاثوليكية ليكون واحدا من الأغلبية الفرنسية التي منها زوجته ، مع أنه لم يكن يعرف أي شيء عن الكاثوليكية.

توفيق الأوضاع

ومضت السنوات، وأصبح هذا الرجل مع مرور السنوات نموذجا للانسلاخ الكامل ، وبخاصة أنه ترك تربية بناته كلية لزوجته وأهلها.

بعد عشر سنوات من هذا التحول الذي لم يكن أهله في مصر قد عرفوا عنه شيئا في عصر كان يعتمد على البريد فحسب ، طلبت منه والدته أن تزوره هي لأنها خرجت على المعاش ، ونالت مكافأة نهاية الخدمة وأصبحت حرة في وقتها ، ومن ثم فإن أول أولوياتها أن تزور فلذة كبدها ، وجاءت السيدة العجوز (بلغة ذلك الزمان) فأقامت في بداية الثمانينيات من القرن الماضي مع ابنها وزوجته وبناته شهرا كاملا في الصيف لم تحس فيها بوطأة الانسلاخ الذي أتمه ابنها ولا بلمحة منه ، وساعدت الظروف على هذا ، فهي نفسها لم تكن محجبة ولا حتى متعصبة ، كما أنها لم تكن بالطبع داعية إسلامية ، ولا ناشطة سياسية ، لكنها كانت تصلي الفروض الخمسة ، وكانت تتوضأ من أجل الصلاة ، لكنها كانت تفعل هذا في سلاسة وببساطة متناهية لا تفقد الحياة المنزلية لحفيداتها رتابتها الطبيعية .

ولم يحدثها ابنها بأنه غيّر دينه ولا اسمه ولم تلاحظ هي ذلك ، فقد كان لسبب جاء بالمصادفة الواردة أو المحتملة قد جعل لقبه في اسمه الجديد هو اسم جده ، الذي كان هو اسمه العائلي في مصر ، وهكذا تقبلت أمه الأمر دون سؤال ، لأنها كانت تعرف أن الفرنسيين و الغربيين يتعاملون باسم العائلة ، وزادت الأقدار من توفيق الأوضاع ، فلم تكن الزوجة ولا البنات ينادونه أو يخاطبونه باسمه المسيحي المستحدث ، وإنما كانوا يخاطبونه من باب التذليل باسمه الأول الذي عرفته به زوجته حين تحابا وارتبطا قبل أن يغير اسمه ودينه.

عادت والدته إلى مصر وهي لا تعرف أن ابنها قد تمسح وتسمى رسميا بغير الاسم الذي أعطته له يوم مولده ، و بعد ثلاثة شهور من زيارتها لفرنسا كان ابنها قد أصبح فرنسيا كامل الفرنسية وحصل على جواز السفر الفرنسي ، لكن هذا لم يغير من الأمر شيئا ، ذلك أنه لم يفكر في العودة إلى مصر ولو من باب الزيارة.

الانسلاخ الكامل

لم يكن الرجل قد انخرط في أي نشاط ديني أو اجتماعي يدل على كاثوليكيته ، لكن بناته بدأن يترددن على الكنيسة بصورة غير منتظمة مع والدتهن أو بدونها.

و ذات مساء إذا بهذا الرجل الذي تماهى بنفسه مع الحياة الفرنسية وترك لأجلها كل ماضيه يجد نفسه أمام مفاجأة لم يكن يتوقعها بأية صورة من الصور فابنته الكبرى التي أصبحت على مشارف السابعة عشرة تريد أن تعتنق الإسلام ، وكذلك وإن كان بدرجة أقل تفكر في أن تفعل مثلها أختها وإن كان سنها لا يسمح لها أن تتخذ قرارها بمفردها .

كان مضي السنوات قد صقل شخصية الرجل ، بحيث يعطي لنفسه الفرصة في التفكير المتمهل قبل أن يتخذ قراره تجاه أي وضع مفاجئ ، فما بالك بأن تصل المفاجأة إلى هذا الحد ؟ إنه لا يحتاج التفكير فحسب بل انه يحتاج إلى معجزة.

الاستشارات النفسية

ألخص للقارئ في السطور التالية ما انتهت إليه المناقشات التي حفلت بها الاستشارات النفسية والاجتماعية التي اضطر إليها صاحب هذه القصة:

- لماذا تريد أن تحرم ابنتيك من أن ينالها حقا حصلت عليه أنت نفسك؟ أنت غيرت دينك بإرادتك وهما تريدان ذلك أيضا!
- لماذا تحكم على خطوتك بأنها كانت خطوة مربحة و مصعدة اجتماعيا وماديا ولا تتصور الشيء نفسه فيما يتعلق بهما ؟
- لماذا تفرض على البنيتين رؤيتك للحياة ، بينما يبدو من روايتك أن أحدا لم يفرض عليك رؤيته للحياة ؟
- لماذا تتصور أنك ضحيت من أجل ألا تري هذا اليوم ولا تتصور أن أبويك قد أحسا بنفس الإحساس فلم ينفعلوا عليك منذ قررت الهجرة وما بعدها ؟
- لماذا تزعم أن ابنتك في سنها هذا قاصرة ، بينما تعترف أنت أن عقلها في هذا السن أرجح من عقلك يوم اتخذت قرارك بتغيير هويتك ؟
- لماذا ظللت تخفي على ابنتيك دينك الأصلي ، وهويتك الأصلية ، مع أنه كان من حقهما أن تعرفا؟
- لماذا لا تحس بالفخر من أن البنيتين تمتعتا بالشجاعة فصارحتا ، على حين افتقدتها أنت فأخفيت الأمر على والديك ؟ أليس هذا مما يدعوك إلى أن تعرف أنهما في اختيارهما تنطلقان من موقف أقوى من موقفك ؟

- كيف تزعم أنك تؤمن بالعلمانية أو اللاركية (اللا دينية) ثم تشغل بالك بخروج ابنتيك من دين إلى دين ؟
- لماذا تفترض أن بقاءهما كاثوليكيين يمثل مصلحتهما المضمونة، ولا تتقبل فكرة أن اعتناقهما الإسلام يمكن ان يفتح لهما أبوابا لا تقل أهمية ؟
- إذا كنت مقتنعا بالكاثوليكية حقا ، فلماذا لم تمارس شعائرها مع زوجتك و بناتك ؟ وإذا لم تكن مقتنعا بها ، فلماذا تحول بينهما وبين تركهما ؟
- لماذا تخشى أن تتحول أمهما هي الأخرى للإسلام ؟ وما هو الضرر الذي سيبصيك إذا قبلت هي الاستمرار معك كزوجة ، لأنها موقنة تماما من أنك لا تزال مسلما ؟
- لماذا تنظر إلى حياتك الماضية منذ غيرت هويتك على أنها استثمار ، وعلى أنك لابد أن تمضي في ذلك الاستثمار إلى نهايته ، مع أن هذا الاستثمار فاجأك بإنجازات أو مكاسب لم تكن تحلم بها أو بعبارة أدق لم يكن الإنسان الطبيعي من أنداك يحلم بها على هذا النحو؟
- لماذا تعتبر نفسك محور الأسرة ولا تترك الأمر لزوجتك التي ربت البنات ، والتي جعلتك أنت نفسك تغير هويتك ؟
- لماذا لا تستكمل مقومات هويتك الجديدة وأول عناصر هذا الاستكمال أن تتخلى عن هذه الروح البطريركية في ربوبية الأسرة حتى لو كنت كاثوليكيًا ؟

يحترم الديمقراطية لا الهوية

من الواضح أن بعض هذه المناقشات صدرت عن مستشارين و معالجين لم يخبرهما الرجل بكافة التفاصيل ، ومن الواضح أنها لم تجد نفعًا ، لكن الأمور في النهاية مضت في سبيلها الطبيعي فأسلمت الابنتان ولحقت بهما والدتهما وشقيقتهم الثالثة ، أما هو ففارقهما خمس سنوات عاش فيها معذبا لنفسه، ومعتنيا بصحته وهدامه حتى لا يبدو أنه يعاني من ذهان أو قلق ، وقد ركبه الغرور عن أن يعود إلى بيته فعاش وحيدا وبعيدا و مغامرا في حدود منضبطة ، لأنه لم يكن ليتحمل الفشل

حتى كان ذلك اليوم الذي ذهبت إليه أسرته جميعا مصطحبين معهم أولى حفيداته ، بعد أن أتمت من عمرها أسبوعها الأول ، وقد صمموا جميعا أن يسموها باسم والدته بنطقه العربي مع أن نطقه الفرنسي لا يبتعد كثيرا عن نطقه العربي الذي يتميز بحرف الطاء .
في تلك الساعة قال الرجل وهو لا يزال على عناده : إنه سيأخذ بمنطق الديمقراطية وسيحترم الأغلبية دون أن يعني هذا أنه سيستعيد الهوية.

الباب الثاني

هل استأصلت العسكرية فرصة الديمقراطية العربية؟

الفصل الرابع

أزمة الديمقراطية في السياسة العربية المعاصرة

استعمال المصطلح

مع أن تعريف الديمقراطية معروف ، ومع أن ملامحها الفكرية والعملية لا خلاف عليها في الأدبيات العالمية ، فإن الفكر السياسي العربي تعمد إساءة استعمال المصطلح على نحو غير مسبوق في التجارب السياسية العالمية ، ومن باب إحقاق الحق ، فإننا نلاحظ أن الجماعات الأيدولوجية لم تشارك على الإطلاق في إساءة استعمال مصطلح الديمقراطية ، حتى وإن كانت قد تجنبته تماما وينطبق هذا على معظم جماعات ما عُرف على أنه جماعات الإسلام السياسي ، وعلى حركة البعث العربي وحركة القوميين العرب و كثير من حركات التحرير الفلسطينية وغير الفلسطينية . وفي المقابل فإن إساءة استعمال مصطلح الديمقراطية وما يرتبط به قد حدثت على يد ما عرف على أنه النظم الثورية المتولدة عن وصول العسكر للسلطة و تقديمهم لأنفسهم على أنهم ديموقراطيون ، بما في ذلك ما حدث أكثر من مرة من النص في اسم الدولة على صفة الديمقراطية ثم محاربة الديمقراطية نفسها حربا شعواء تحت هذه المظلة .

وليس من شك في أنه كانت هناك أكثر من تجربة سياسية عربية اشتبكت بقسوة مع الديمقراطية وأثخننها بالجراح ، مع حرصها على نسبة تصرفاتها للديموقراطية ، لكن أبرز هذه التجارب في هذه المعركة المريرة والمحبطة كانت هي التجربة الناصرية ، ومن المدهش ، بل المذهل أن من أكثر من ساهمت في إضفاء هذا التحول القاسي على الناصرية كانت هي الولايات المتحدة الأمريكية . ومن المدهش ، بل المذهل مرة أخرى ، أن هذا هو موطن العبرة من التجربة التي تتكرر الآن في أكثر من موقع في محيطنا العربي من دون انتباه كاف أو متعمق من الساسة والمنظرين .

عداء الديمقراطية

وليس من قبيل المبالغة القول بأن أولى سمات الفكر السياسي في شخصية الرئيس جمال عبد الناصر كانت هي كفه التام بالديموقراطية و عداؤه الصريح لها ، ونحن نفهم أن هذا هو الطابع

المسيطر على العسكريين في كل زمان ومكان ، لكن الرئيس جمال عبد الناصر كان مبالغا في هذا الكفر وهذا العداء لأسباب جوهريّة وأخرى مرحليّة ، بل إنه من العجيب أن الأسباب التي كانت تحتمل أن يكون لديه قدر من الحب والتقدير للديموقراطية لعبت ببراعة ضد الديموقراطية وضد حبها على طول الخط ، ذلك أنه بدأ نشاطه السياسي في تنظيمات الأقلية التي ترفع شعار الديموقراطية ، بينما هي تعاديها وتكفر بها تماما ، بل وتعمل على القضاء عليها انطلاقا من أهداف تبدو نبيلة الغاية و المعتمد ، و المثل في ذلك هو جماعة مصر الفتاة التي شكلت الوعي السياسي لعبد الناصر ، وحين أثر الرئيس جمال عبد الناصر أن يترك مصر الفتاة ، فإنه ترك الأشخاص ، ولم يترك الفكرة الفاشية ، بل إنه شأن كل شاب من أمثاله ازداد اعتصاما بالفكرة ليدين بها الأشخاص أو الزعامات التي رآها أقل من أن تحمل روح الفكرة ، وهكذا فإن الرئيس جمال عبد الناصر شأنه شأن كل المنشقين عن مصر الفتاة من الشباب ، كان فاشيا بأكثر من المتعقلين الذين بقوا في مصر الفتاة ليحافظوا للحركة ثم للحزب على مكانة ما في الشارع السياسي.

وإذا أنت بحثت فيما انتقد به الرئيس جمال عبد الناصر قياداته السابقة في مصر الفتاة (وهم بالمناسبة معروفون بالاسم) مبررا لخروجه عليهم ، لوجدته لا يتحدث إلا عن تجاوزات مالية ، أما الفكرة الفاشية نفسها فكانت لا تزال حتى مماته تأخذ بلبه ، وتشغل فؤاده ، بل وتزداد تألفا ولمعانا في ذهنه وذائقته على حد سواء.

الفاشية والعسكرية معا

وهكذا فقد أضاف الرئيس جمال عبد الناصر كره الفاشية للديموقراطية إلى كره العسكرية للديموقراطية ، ثم تبلورت قمة كراهيته للديموقراطية في مرحلة ما بعد نجاح حركة الجيش من خلال ما كان يخرج به من مناقشات ومناقشات زملائه مع الأمريكيين (الذين كان يلتقيهم منذ ما قبل الثورة وفي أعقابها مباشرة) فقد فهم من هؤلاء الأمريكيين بكل وضوح أنهم لا يتقون في إمكان التعاون مع الوفد لسبب جوهري هو أن الوفد كان يفوز في الانتخابات بسهولة ، ومن ثم فإن الوفد كان يؤمن بالشعب ، ويحرص على أصوات الناخبين ، ولهذا السبب فإن الأمريكيين كانوا يصرحون له بأنهم لا يرحبون بالانتخابات لأنها ستأتي بالوفد ، بل وأكثر من هذا فإنه فهم بكل وضوح أن تأييدهم له مرتبط بقدرته على تأجيل الانتخابات وتسويقها حتى لا يعود الوفد إلى الحكم واتخاذ القرار .

نحن نفهم من برجنا العاجي الآن جوهر السبب في أن الأمريكيين لم يكونوا على استعداد للتعامل مع قوة وطنية تستند الى الصندوق ، لكننا نمارس التجني على الرئيس جمال عبد الناصر

إذا ما طالبناه بأن يكون واعيا لهذا العداء الأمريكي لإرادة الشعوب حين كان في المرحلة السنية التي كان لا يزال فيها حين تناقش مع الأمريكيين، ونحن نعرف ونفهم أن الأمريكيين كانوا يشغلون الوقت بما يتحدثون به عن الإنجاز التنموي ، وعن إلحاح الحاجة إلي الإنجاز من أجل رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي ، ونعرف بالطبع أنهم كانوا يعزفون السيمفونية القائلة بأن الإنجاز لا يمكن أن يتحقق في ظل روح الحزبية التي تنتقد جهود الآخرين ، ولا في ظل الديمقراطية التي تتطلب التصويت وموافقة البرلمان ، ولا في ظل بقاء هذه الزعامات الليبرالية القديمة وما تمثله من صراعات المصالح.

هل تتطلب التنمية التضحية بالديموقراطية

هكذا أصبح الرئيس جمال عبد الناصر بشبابه وبقلة خبرته وبفهمه المتأثر بتوجهه الثوري (اليمني أو الفاشي) أسيرا للفكرة التي مؤداها أن الإنجاز التنموي يتطلب بل يحتم التضحية بالديموقراطية، وكان هذا في الواقع هو قمة نجاح الأمريكيين في تشكيل وعيه عبر مناقشات مستفيضة كان معروفا لهم أنها لا بد أن تنتهي إلى هذه النتيجة.

وخذ على سبيل المثال موضوعا أو إنجازا كالإصلاح الزراعي بكل ما هو معروف في الأدبيات التاريخية و العالمية من مزايا ومن عيوب ، وتأمل معي صورة الرئيس جمال عبد الناصر حين يستمع في الصباح إلى علي ماهر باشا وهو يشرح له عيوب مثل هذا القانون ، فإذا به يكتشف أنها هي نفسها العيوب التي قال له الأمريكان في الليلة السابقة ، إن أي زعيم من المخضرمين (من طبقة علي ماهر باشا) سيبيديها له ، ثم هو يستمع إلى الإخوان المسلمين فيذكرون له حكم الشرع تجاه حقوق الملكية ، فإذا هو نفسه ما ذكره له الأمريكان في الليلة السابقة ، وهم يصورون له موقف ما يطلقون عليه مصطلح الرجعية الدينية على حد تعبيرات الاقتصاديين الحريصين على التظاهر باليسارية... وهكذا...

وهكذا استطاع الأمريكان أن يؤكدوا على ما كانت عقلية الرئيس جمال عبد الناصر قد مضت إلى بلورته بالسير في الاتجاه الذي يحارب الديمقراطية بلا هوادة من أجل الإنجاز. وأنت إذا كنت من هواة المسرح ، وتسارع قلبك بالإحساس بالخوف عليه وهو تحت هذا التأثير المعرفي المزيف ، فإنك سوف تحس أيضا بالتعاطف التام معه مهما كانت تجاوزه في سبيل ما ظنه واجبا عليه .. ولن تلقي بالا لمن يقول لك إنه أحب التسلط لأنه متسلط بطبعه ، ولا لأنه عاجز عن العدل أو الفهم أو الاستيعاب .

التنظيمات السرية

وهكذا تشكل وعي الرئيس جمال عبد الناصر بعد أن قامت ونجحت حركة ١٩٥٢ ليكون ديكتاتورا مطلقا غير قابل للعودة الى أية درجة من درجات الديمقراطية بأية صورة من الصور. و في مقابل أزمة غياب الديمقراطية ، وما ترتب عليها ، فقد كان أسوأ ما أبتلي به الرئيس جمال عبد الناصر هو تنظيماته السرية التي تبدو في بعض الكتابات التاريخية محل إعجاب المراقبين ، دون أن يكون لها الحق في الاستحواذ على هذا الإعجاب ، فقد كانت متاعبها أكثر بكثير من فوائدها، لكن الرئيس جمال عبد الناصر ظل مقتنعا بضرورة هذه التنظيمات بحكم انتمائه السابق وانتماء أقرانه للعمل السري (في النظام الخاص للإخوان أو في الحرس الحديدي أو في التنظيمات الشيوعية..) أو بحكم إعجابه بهذه النماذج من نماذج التنظيم الهادف المحكم أي ذي الهدف المحدد وذي الطبيعة المحكمة.

ومن عجائب الحياة التي لا يندعش لها المشتغلون بالأدب أن كل المصاعب والانتقادات التي وجهت إلى الرئيس جمال عبد الناصر ، وتجربته في حياته وبعد مماته جاءت من خلال من انضوا تحت راية هذه التنظيمات ونظائرها وفي مقدمتها التنظيم الطليعي و منظمة الشباب الاشتراكي. صحيح أن هذه التنظيمات لم تصبح تنظيمات معارضة للرئيس جمال عبد الناصر ونظام الرئيس جمال عبد الناصر لكنها أصبحت بمثابة المورد والمعين الذي وفر الأدبيات والحركات التي كانت ضرورية لتشريح ونقد ثم تمزيق صورة التجربة الناصرية.

الفصل الخامس

كيف تهدم نتائج الثورات المضادة مستهدفاتها!

فكرة تشويه الثائرين

كانت الثورات العربية المضادة تعول على الإمكانيات المادية المتوفرة لها في فرض ما تريد فرضه من مفاهيم سياسية "عتيقة" تتعلق بتجريم الثائرين و تشويه أهدافهم ، والترهيب من حركاتهم و مناهج حركياتهم ، فإذا بالآية تتقلب تماما على مدى سنوات معدودة ، و يحدث عكس ما خططت له هذه الثورات المضادة ، بل تنكسر مفاهيم كفيلة بتجريم فكرة الثورات المضادة وحصارها ، ومن ثم إصابتها بالتحلل الداخلي المتسارع رغم تضاعف تمويلها المتدفق ، فضلا عن اضطرارها المتكرر إلى ما يسهل وصفه بأنه الإكثار من المعادة لثوابت الأمة والعبث غير المسئول بعناصر الاستقرار الاجتماعي ، ومن ثم عملها الآلي (و الذي لم تنتبه لخطورته) على نقض البنية الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعاتها وما يرتبط بهذا النقض من حتمية تدمير عدد لا بأس به من المكتسبات الاقتصادية والتنموية ، فضلا عن الموروثات الحافظة للمجتمع والمحافظة على كيانه السياسي.

بعد هذه المقدمة الموجزة للفكرة المكثفة نسارع إلى دراسة النمط التطبيقي بأن نقفز مباشرة إلى التأمل في طبيعة الآليات المحدثة لبعض النتائج العكسية التي أفرزتها عدد من أبرز و أشهر المحاولات الدفاعية المستميتة والدائبة التي تبنتها الثورة المضادة و عملت من أجلها بفعاليات جادة ومبرمجة ومدروسة في الصعيدين الإعلامي والدبلوماسي.

التمويل الخارجي

بدأت الثورة المضادة على سبيل المثال بالحرص (الشعوي) على وصف طلائع ثورات الربيع العربي بأنها حركات مشبوهة ممولة من الخارج وأنها لا تخدم إلا أجندات أجنبية معروفة وظلت حملات الثورات المضادة تلعب على هذا الوتر الحساس بتتويجات لحنية مختلفة لم تتورع عن توظيف الدين بكل طريقة وعن استدعاء الشعور الوطني بكل نفيير وفي كل شهيق وزفير، كما لم تتورع عن تليفق الاتهامات و ترويج الشائعات وتوظيف الاقتباسات والتنبيه إلى التمويلات واللقاءات الخ .

ثم كانت المفاجأة المذهلة أن ذهبت وفود هذه الثورات المضادة بكل وضوح (ومن باب التهذيب ، فإننا لا نكرر الوصف الشائع...) و بكثافة وإحاح للخارج نفسه لتقدم نفسها في صورة

أقرب إلى صورة استجداء العمالة و لتقول للغرب : إن ثورات الربيع تستهدف في نهاية الأمر استعادة الهوية (والذاتية والإصالة والتاريخ) ، ومن ثم فإنها ترنو إلى إعادة الخلافة الإسلامية ، بل تعمل على إعادة هذه الخلافة التي ستكون بكل التأكيد مزعجة لكم ؛ ومنتقصة من توظيفكم لنا في خدمة أهدافكم الإمبريالية والتوسعية المتعارف عليها ، والتي رضيت بها وأقرتها نظم عميلة أخلصت لكم على مدى عقود ماضية .

استخدام النقيضين

ومع ما بدا للثورة المضادة من أنها أجادت استخدام هذين النقيضين والمرابحة بينهما في ظرفين مختلفين ، فإن ثورات الربيع العربي هي الأخرى استفادت (ومن دون تخطيط منها) من النقيضين و كانت استفادتها أكثر جدوى ، ذلك أنها اكتسبت من النقيض الأول صورة قد تكون مبالغاً فيها من حيث درجة الاتصال الوثيق بالقوى العظمى ، وهي صورة كانت كفيلة بأن تشجع جموعاً لا بأس بها من الجماهير المترددة أو الأغلبية الصامتة على الانضواء (ولو متأخراً) تحت راية ثورات الربيع ، وبأن تقلل إلى حد كبير من الخوف من معقبات أو عواقب مثل هذا الانضواء الذي بدا في العقود السالفة خطراً مؤكداً ، وكذلك فقد استفادت ثورات الربيع من النقيض الثاني دعاية ضخمة وغير مسبوقه و متمتعة بمصداقية عالية ، لأنها جاءت صادرة بوضوح عن عدوها لتؤكد على تمتعها بعنصري الأصالة والولاء وكل ما يرتبط بهذين العنصرين من سمات محببة إلى نفسية كل وطني بسيط وعقلية كل وطني منشغل بالهم العام.

إلصاق الإرهاب

على صعيد آخر ، فقد وجدت مجموعة الثورات العربية المضادة نفسها مضطرة (من أجل تحقيق قبول غربي في أوساط معينة) إلى أن تلتصق صفة الإرهاب بكل الجماعات السياسية التي بدا أنها قد استفادت من حالة الديمقراطية (أو التحول الديمقراطي) التي استحضرتها أو استدعتها ثورات الربيع إلى واجهة المشهد السياسي ؛ وفرضتها على طبيعة ممارسته للسياسة بعيداً عن سطوة العسكر والمخابرات وأمن الدولة والدولة العميقة .

وقد جاء هذا الإلصاق المتجني على الحقيقة وعلى الواقع بعد أن مارس العسكر الممول بإلحاح من الثورات المضادة أقصى درجات انتهاك الديمقراطية بكل ما يعنيه هذا الانتهاك من إلغاء للدستور واحتقار للصندوق ، وبعد أن زجت مدرعات العسكر بكل السلطات الشرعية وراء القضبان ؛ وبعد أن خلت للثورات كل ساحات التصريحات الصحفية و الفضائية والسياسية كما دانت له ساحات الادعاء والقضاء ، و تواطأت معه قوى غربية يمينية معادية (من باب التقليد

الأعمى والأسهل) للإسلام كدين وكحضارة و كوجود (وذلك تطبيقاً لمفهوم البحث عن ثنائية جديدة بعد زوال الشيوعية) .

لكن طبيعة وفلسفة المعرفة الكونية الجديدة (الكفيلة أوتوماتياً بفرض الصواب وانجلاء الأكاذيب) سرعان ما فرضت نفسها ومنطقها بل ومنطوقها وسرعان ما أبانت وجه الحقيقة في أن أصحاب الثورات المضادة هم أنفسهم الذين مارسوا الإرهاب فيما يعتبره الغرب أبشع وأخلد صوره في ١١ سبتمبر. وهكذا استطاعت أمريكا أن تصدر ما عرف بقانون جاستا في عهد الرئيس باراك أوباما نفسه بكل ما عرف به من تحفظ وتؤدة ، وبكل ما عرف عن عهده من هدوء وإرجاء ... وكان التفسير المنطقي الوحيد لهذا الإسراع (أو حتى :النزق) الأمريكي غير المعهود في إصدار مثل هذا التشريع الغريب (ولا نقول : الشاذ) هو أنه كان بمثابة رد فعل منضبط معملياً نتيجة لضغوط ملحة وممولة من دولتين عربيتين ضد جماعة سياسية مؤثرة و ذات تاريخ كانت في لحظة إصدار قانون جاستا تعاني من أسوأ حالة كارثية تعرضت لها جماعة سياسية على مدار التاريخ المعاصر .ويعتقد الاستثمار السياسي البحث ، فإن المستثمر المخضرم ينتهز فرص إلحاح المشتري على الإنفاق في شراء منتج جديد قبل أن يبحث عن تلبية رغبته الشاذة والملحة واللاإنسانية في إدانة مظلوم أو جرح ميت أو الإجهاز على جريح .

نزع صفة الشرعية

كانت الثورات العربية المضادة حريصة على أن تؤصل لوضعية سياسية وقانونية كفيلة بنزع الشرعية عن أي تغيير محتمل لمسار التعاقب على السلطة الحصرية في بلادها ، فإذا بهذا الحرص نفسه ينقلب بين ليلة وضحاها إلى أقصى ما يمكن من انقلاب في الترتيب ، مستدعياً للصدارة من يقع أفضل رقم لترتيبه الطبيعي فيما بعد المانتين بكثير ، وذلك ليقفز إلى الترتيب الثالث فالثاني مباشرة، وهو الأمر الذي أثار على سبيل المثال ذهول المراقبين البريطانيين (والواعين للبروتوكول الملكي البريطاني) الذين يعرفون ترتيباً صارماً لانتقال العرش ، و يتداولونه بكل وضوح ، حتى في التعليقات المعرفة بصور الأسرة المالكة حين يضعونه كرقم ترتيبى بين قوسين بعد اسم أي من الأمراء والأميرات المحتمل أن يؤول إليهم العرش.

وهكذا فإن قرارات تيار الثورات المضادة التي رعاها النظام العربي الحريص على وصف نفسه بالمحافظة المفرطة أو التقليدية الصارمة سرعان ما دفعها إلى ما فوجئ به المراقبون حين وجدوها تلجأ فجأة (من أجل ما تصورته تقوية لنفوذها وقدرتها على محاربة تيار الربيع العربي

(إلى انقلاب داخلي غير مسبوق (وغير مبرر الصورة) يفوق في نتيجته الفعلية أو العملية ما أمكن أن تحققه ثورات الربيع العربي من إعادة لتنظيم هيراركية (تراتبية) السلطة . وعلى سبيل المثال فإن الرئيس المصري المنتخب في ٢٠١٢ كان هو نفسه زعيما للمعارضة البرلمانية فيما بين ٢٠٠٠ و ٢٠٠٥ ، و في تلك الفترة نفسها لم يكن الأمير الذي دفعت به الثورة المضادة إلى صدارة الحكم في المملكة قد أتم تعليمه الجامعي بل الثانوي وهكذا فإن مساحة عملية التغيير التي أحدثتها الثورات المضادة على أرضها هي تجاوزت (من حيث المساحة والمدلول) بكثير أقصى ما حققته ثورات الربيع العربي.

الفصل السادس

ماذا بعد أن فقدت الأنظمة العسكرية مبررات وجودها؟

الديموقراطية المكروهة

في ١٩٤٩ نجح الزعيم حسني الزعيم في انقلابه الذي بدأ به سلسلة الانقلابات العربية ، بعد أن انتهى وجود انقلابي العراق واليمن السابقين عليه ، ومنذ ذلك الحين قدمت الانقلابات العسكرية نفسها لشعوبها على أنها حركات ثورية تستهدف التحرير والديموقراطية والتنمية ؛ ووجدت هذه الانقلابات من معطيات الحياة السياسية السابقة عليها ما يكفل لها أن تبرهن على عنايتها الظاهرة بهذه الميادين، لكنها و من دون أن نعيد استعراض التفاصيل المعروفة سرعان ما اكتشفت أنها لن تستطيع أن تمضي في ظل هذه الثلاثية لسببين وجوهين مهمين:

- الأول هو أن الديموقراطية نفسها تتعارض مع استمرار الحالة الانقلابية ، كما أن استمرار الحالة الانقلابية يتعارض مع الديموقراطية، وهكذا اتجهت الانقلابات لإعلاء فكرة وجود الثورة فوق وجود الديموقراطية، متذرة لهذا التوجه بالعديد من الأسباب المكشوفة.
- الثاني هو أن خطط التنمية الجادة تتعارض أيضا مع استمرار الحالة الانقلابية ، لأنها تخلق حالة من الوعي البرجوازي الداعي مباشرة للتخلي عن التصرفات العسكرية الاستثنائية وما يصحبها من فساد جوهري معوق للتنمية؛ ومن ثم كانت حتمية اللجوء إلى أنماط من التنمية الزائفة المعنية أساسا بتفريغ طاقات الشعب بعيدا عن الحراك السياسي والفكري.

قضية التحرير

كان الملاذ الأمل في هذه الحالة هو الاعتماد على قضية التحرير لتكون بمثابة الميرر المستدام لوجود القائمين بالانقلابات العسكرية في السلطة واستمرارهم فيها، و لم يكن هذا الحل المناور مطروقا من قبل على مدى التاريخ الإنساني الذي أحاط الحروب بباقيات من الشرف الأخلاقي و الحماسي ، لكنه لم يوظفها من أجل قهر جماعة العسكر لشعوبهم تحت دعوى الاستعداد لحرب عدوهم.

مع مضي الزمن ومع نشأة شبه طبقة اجتماعية مستحدثة غير مستكملة لشروط الطبقة هي طبقة العسكر المنقلبين ومن إلى جوارهم من المنتفعين بالعسكر المنقلبين ، تطورت فلسفات جديدة في علم الاجتماع السياسي مستهدفة إضفاء المشروعية على عملية تغييب الديموقراطية ، وذلك

من أجل استمرار الاستحواذ على السلطة و الاستمناح بمزاياها التي باتت تتضخم يوما بعد يوم؛ كانت بعض هذه النظريات بمثابة أطروحات ساذجة ، لكنها مألوفة للفراغ؛ وكان بعضها الآخر بمثابة تبريرات لاحقة ، لكنها مفتقدة للصدق ؛ فمن النوع الأول تبرز النظرية القائلة بأن الديمقراطية الاجتماعية أهم من الديمقراطية السياسية ، ومن النوع الثاني تبرز النظرية القائلة بأن تربص الاستعمار الجديد بخطط التنمية كان كفيلا بفشلها ، مع أن هذه الخطط المزعومة لم تكن في حقيقة الأمر إلا فشلا وضعت عناوينه في سطور ثم وضعت قبل العناوين أرقام مسلسلة للإيحاء المفتعل بشكلائية التخطيط.

مشروع الديمقراطية الغائبة

على كل حال فقد تمادي منظرو الديكتاتورية والعاملون لأجلها في خلط المعاني وتلبسها إلى الحد الذي جعل جيلنا عند نشأته يفهم الحرية على غير حقيقتها ، حيث صورها لنا دهاقنة العسكر على أنها تقتصر على حرية الأوطان أي تحررها من الاستعمار (و يا حبذا من الرجعية) ، وهكذا ابتعد مدلول اللفظ تماما عن الحرية السياسية وحرية الرأي والتعبير ، كما ابتعد تماما عن معاني الديمقراطية والانتخابات والتصويت.... الخ.

وعلى سبيل المثال، فقد ظل معنى الحرية ملتبسا فيما يعرض من خطاب سياسي على أذهان المواطنين بعد أن عادت مصر إلى الحياة السياسية تدريجيا من خلال المنابر والتنظيمات الأحزاب ومن خلال الانتخابات الحزبية.

وشينا فشيئا عادت الأمور الطبيعية إلى الفهم والاستيعاب في أذهان جماعات كبيرة من الجماهير، وذلك على الرغم من المحاولات المفهومة لقدامي الكتاب "الحكوميين" أن يجدوا ميرا للتدليس في استخدام معنى الحرية السياسية وتحويله إلى ما قصروه عليه من مفهوم التحرر من الاستعمار فحسب.

البحث عن مشروع جديدة

كان من الطبيعي أن تتجه الأنظمة العسكرية العربية إلى ما يمكن تسميته توفيق الأوضاع السياسية لتحقيق مشروع جديدة بعيدة عن المشروع القديمة التي انتهت نظريا بإعلان الاستقلال أو بخروج آخر جندي من جنود سلطات الاحتلال الأجنبي ؛ ومع أن توفيق الأوضاع كان يتطلب إعطاء مساحات أوسع لدولة المؤسسات ، فإن العسكريين العرب في مواقع الحكم المطلق لم يكونوا على أدنى استعداد للقبول بهذا ، حتى لو أن أحدهم خطا خطوات ناجحة في هذا المسار ، بل إن من العجيب أن الحاسة السلطوية عند العسكريين العرب سرعان ما انتبهت إلى خطورة مثل هذا

السعي في توفيق الأوضاع ، وسرعان ما أسعفهم دهاقنة اليسار باستعارة لفظ الثورة المضادة لإطلاقه على أية محاولة جادة للخروج من شرنقة الحكم العسكري المطلق إلى حكم عسكري ذي طابع مدني أو معترف بقدر ما من الحريات السياسية.

و لأن السلطة الغاشمة لا تعدم طريقة في العثور على مبررات للبقاء في موقع السلطة ، فإنها أسرعت بكل همة إلى قضية فلسطين لتجعلها بمثابة المبرر القوي لوجود هذه الأنظمة العسكرية واستمرارها ، بل ولتبديلها بنظم عسكرية أخرى دون أي تفكير في العودة عن هذا المسار الاستثنائي.

استمرار الصراع العربي

ومن دهاء التاريخ أن العسكر المتعطشين إلى البقاء في السلطة كانوا حريصين بذكاء مفرط على استمرار الصراع العربي الإسرائيلي وعلى ما هو أهم وهو استمرار التعقيد في الصراع العربي الإسرائيلي (سواء في ذلك الصراع الداخلي و الخارجي) ، حتى إنهم انزعجوا أيما انزعاج حين بدأ هذا الصراع يخالف مساره المعهود بعدما تحقق نصر أكتوبر وفض الاشتباك الأول فالثاني ثم المبادرة و كامب ديفيد

وهكذا فقد كان أكثر العرب معارضة لهذا المسار (أياً ما كان صدقه) هم أولئك الذين يمثلون الديكتاتوريات العسكرية التي سارعت إلى الاتحاد في حماس شديد ، ولأول مرة في تاريخها بتكوين جبهة الصمود والرفض ، وقد كان الأحرى أن تسمى جبهة الحفاظ على الانقلابات العسكرية.

التحول التدريجي إلى ملكيات

ولم يقف دهاء التاريخ عند هذا الحد ، فقد اقتنعت كبرى الملكيات العربية بفضل مستشاريها الأمريكيين بأن أفضل البدائل المتاحة لاستقرارها يتمثل في العمل الدائب على تثبيت وضع النظم العسكرية العربية، والبده في تحولها التدريجي إلى ملكيات تنتسب إلى آخر فائز في لعبة الكراسي الموسيقية.

ومن دون أن نشغل القارئ بالتفصيلات التاريخية التي يعرفها بحكم المعاصرة ، فإننا نذكره أن القرن الجديد بدأ بأول تجربة ناجحة في هذا المسار ، حين خلف بشار الأسد أباه حافظ الأسد في ٢٠٠٠ ، وطارت وزيرة الخارجية الأمريكية لتتولى بنفسها إتمام عملية التعميد (أو التندشين) هذه في دمشق ، وكانت هي وليس غيرها التي خرجت تعلن للعالم كله ما يعني بوضوح أن أسرة ملكية عربية جديدة ستحكم سوريا ، مضافة بهذا شرعية جديدة على ثلاثين عاما سابقة هي فترة

حكم الأب المؤسس حافظ ، وليقال في كتب التاريخ القادمة إن الدولة أو المملكة الأسيديّة قد أعلنت في سوريا في ٢٠٠٠ وإن كان رأس هذه المملكة قد حكم منذ ١٩٧٠ .
وعلى حين فجأة ، جاء التحول الكبير والحاسم في شكل السلطة في الوطن العربي باندلاع الثورات العربية التي مثلت صعوبة بالغة في فهم آلياتها واستيعاب حركتها وتصور التطور الممكن لها.

وقد بدت هذه الصعوبة واضحة الصدى والملاح في عقليات القوي السياسية العربية التقليدية ، فقد تفرغت هذه القوى التقليدية لا للبحث عن نقاط التقاء أو احتواء أو تفاهم مع الطلائع الجديدة التي أظهرتها هذه الثورات ، وإنما للبحث عن سبل وأد هذه الثورات ، وهكذا لجأت هذه الأنظمة إلى العودة لأنماط سياساتها التقليدية المعروفة والمتمثلة في قدرتها التقليدية الفائقة على ضبط النفس وتوظيف الحذر و الاحتماء بالغموض الإيجابي والتعويل على النجاح المنتظر من ممارسة الفخر بالتعقل في رد الفعل تجاه ما هو متوقع من طيش الثورات .

الفخاخ المنصوبة

ومع هذا كله فإن جيل الثورات العربية الربيعية كان أذكى من أن يقع في مثل هذه الفخاخ المنصوبة ، حتى إنه لم يعر الأمر أدنى التفات ولا تعقيب حين نجح الطرف الثالث في مصر في استحداث موقف من المواقف التي تتمناها الأنظمة التقليدية في مثل هذا السجال ذي الزمام المنفصل ؛ بينما حاول الجيل القديم ومن ضمنه كاتب هذه السطور أن يعالج الأمر على النحو المعروف في مثل هذه الحالات بالذهاب في وفد مصالحة من القاهرة إلى الرياض.

ومع مرور الوقت كانت القوى الرجعية تمضي في تحبيذ التقنية الأمريكية التقليدية بالجوء إلى تمويل انقلاب عسكري ، ولم يكن الأمر في هذه الحالة سهلا على نحو ما كان في حقبة الحرب الباردة ، ذلك إن العنصر البشري نفسه المتمثل في القيادات التي ستتم مخاطبتها من أجل إتمام الانقلاب لم يكن مندفعاً ولا جاهزاً على نحو ما كان أسلافه في نهاية الأربعينيات وطيلة الخمسينيات ؛ كان المرشحون للقيام بالانقلاب أكثر استقراراً في مناصبهم وأكثر عانداً ، وأقل رغبة في مظهرية الحكم ، وأقل رغبة في المخاطرة مهما كانت مضمونة وكانوا يرون بأعينهم ويسمعون بأصواتهم أصوات الرعد التي تصدر عن شباب الثورة وهم يهتفون هتافهم الذي لا يخلو منه تجمع ولا تظاهرة.

الضمانات و المكافآت

استدعى هذا الوضع من الراغبين في إحداث الانقلاب في بلد لا يحكمونه تقديم ضمانات ومكافآت كافية بل مغرية لهؤلاء الذين قد يقبلون بالانقلاب؛ ومع كل خطوة من بروتوكول البرنامج الانقلابي كانت أرقام التمويل ترتفع و تقفز وتتعدد وتعاود الارتفاع والتعدد ولم يعد التمويل مقصورا على الإعداد والتحضير والتأمين والمكافأة المسبقة فحسب ، ولكنه بدأ يشمل تكاليف تغطيات حملات إعلامية ودبلوماسية واسعة في الخارج ، كما بدأ يشمل تكاليف الاستعانة بقوات وميليشيات خاصة مدربة من نوعية البلاك ووتر .

ومع هذا كله ، ظلت آلية هذه الانقلاب الحديثة مفتقدة إلى أهم مقومات استمرارها كفعل سياسي بل إن توالي الأحداث وتعاقبها منذ بدأت حقبة الثورة المضادة لثورات الربيع العربي بدأت ترسم للانقلاب العسكري ملامح الحالة المرضية التي لا يمكن أن يتبناها على المدى الطويل أحد ، بينما لم يستطع الانقلاب نفسه حتى هذه اللحظة إيجاد أو تثبيت مبرر وجوده من الأصل، أو مبرر بقاءه في المستقبل .

السياسات الحمايية

ومع أن أكثر الكارمين للثورات العربية يتلمسون العذر لقيادات الانقلابات في غطرستها ودمويتها و عنفها و مجافاتها للإنسانية والعدالة وحقوق الإنسان فإنهم يعرفون حق المعرفة أن التبرير مهما كان مقبولا ليس بديلا للقبول ؛ وأن القبول بأمر واقع في وقت ما ليس مبررا لديمومته ؛ و أن الزعم بالحفاظ على الدولة لا يمكن أن يعني القضاء على روحها ولا على الشعب . وهكذا فقد أصبح المبرر الأقوى لبقاء حالة الانقلابات العسكرية هو رغبة الجيران الأغنياء في ألا يسمعا صوت الثورات العربية الهادر .

باختصار شديد ، فقد أصبحت الانقلابات العسكرية جزءا من سياسة حمايية رجعية بعد عصر نتوجت فيه الانقلابات كثورات تحرير يمتد وعدها بالتحريض إلى فلسطين السليبية التي أصبحت الآن في مرمى سهام الانقلابات العسكرية التي ضحت بأخر ورقة من التوت كان يمكن لها أن تستر بعض عورتها .

الباب الثالث

الازدواج الحتمي بين الدكتاتورية والعسكرة

الفصل السابع

دور قيادة الجيش في صناعة الدكتاتورية

[دراسة لحالة المشير عامر]

معنى التأمل الجاد

مع كل ما نجده في أدبيات السياسة العربية والتاريخ المعاصر من نصوص واضحة عن ندرة التوجهات الفكرية للمشير عبد الحكيم عامر في ميدان السياسة والثورة والعمل السري والحكم، فإن الواقع التاريخي يقول إنه كان مؤثراً وفعالاً جداً في حركة عبد الناصر ورفاقه وتنظيم الضباط الأحرار ولجنتها القيادية ثم مجلس قيادتها منذ أول الثورة ومنذ ما قبل قيامها. ولعل هذا يدفع الدارسين إلى معاودة التأمل الجاد في أدواره المبكرة التي أتاحت له هذه الفرصة الواسعة من التأثير والقدرة على اتخاذ القرارات في الاتجاه الذي يراه. وأقصد بالتأمل الجاد دراسة وجهات نظره بعيداً عما استسهل الكتاب الإشارة إليه من صداقته الحميمة بعبد الناصر. وإذا جاز لنا هنا أن نلجأ إلى نموذج كاشف عن تأثير عبد الحكيم عامر، فإننا نستطيع أن نلجأ بسهولة إلى المقارنة بين ما أعلنه من توجهاته، وما أعلنه أنور السادات - وهو أكثر المجموعة خبرة بالسياسة - عن توجهاته.. فعلى حين أنهى السادات المحاولة بإعلان أن صوته مع عبد الناصر على الدوام، فإن عبد الحكيم لم يفعل هذا أبداً. ومعنى هذا بوضوح، أن عبد الحكيم كان يجادل عبد الناصر مجادلات فردية وجماعية أيضاً، وليس معنى هذا أن السادات كان بلا رأي، كما يقول أعداؤه، ولكن معناه أن عبد الحكيم كان لا يزال يعيش الحيوية الفكرية بصوابها وأغلاطها دون أن يضع لنفسه خطوطاً حمراء. ومن الإنصاف أن نذكر أن عبد الحكيم عامر ظل كذلك حتى وفاته في ١٩٦٧.

التكتم لا التعقيم

وحين نستعيد معاً (أنا والقراء) شريط الثورة منذ بدأت تصرفات قادتها تظهر أمام الناس، فإننا نستطيع أن نتعرف على دور عبد الحكيم الفكري والحركي على وجه أكثر تحديداً ودقة.

ومما لا شك فيه - على سبيل المثال - أن عبد الحكيم عامر كان صاحب الطلقة الأولى القاتلة أو الحاسمة في اقتحام مبنى قيادة الجيش ليلة الثورة.. وهي رواية حظيت فيما بعد بقدر من "التكثيم" المقصود (في هذا المقام فإن لفظ " التكثيم " أدق من وصف التعتيم)، حتى لا يتضخم مجد عبد الحكيم عامر في مواجهة مجد عبد الناصر الذي صور على أنه صاحب المجد الأول، كما أن الرواية كفيلا بأن تثبت على الثورة أنها استخدمت السلاح وإسالة الدماء، بينما كانت الثورة تستلذ أو تستريح إلى وصف نفسها بأنها ثورة بيضاء بلا قتلى ولا ضحايا، مع كثرة ضحاياها فيما بعد. وعلى كل حال ، فإننا نقدم بعض ما روي عن هذه الواقعة على نحو ما أوردها صلاح نصر في مذكراته حيث يقول:

وأمر عبد الحكيم عامر جندي الحراسة أن يفتح البوابة الحديدية للمبنى ولكنه رفض.. وأخرج عبد الحكيم عامر طبنجته وهدد الجندي بقتله إذا لم يستجب للأمر، ولكن الجندي أصر على الرفض، وكاد يصرخ مستنجدا بالقوة المرابطة داخل المبنى. أصبح الموقف حرجا، فأطلق عبد الحكيم النار على الجندي وأرداه قتيلا واقتحمت القوات المبنى.. ولم تلق أي مقاومة."

اختياره للواء محمد نجيب

وقد أشرت كثيرا إلى أن أكثر ما بلور نجاح عبد الحكيم الفكري (بدون سفسطة) هو اختياره الذكي للواء محمد نجيب ليكون رجل الثورة الأول، الذي يتحرك أصحابها تحت مظلته، أو بعبارة أدق في اكتشافه لشخصية عظيمة بهذا القدر.

ومن حسن الحظ ، أن أحداً ذا قيمة لم ينف أن عبد الحكيم عامر كان صاحب الفضل في اكتشاف محمد نجيب، كقائد محتمل للحركة التي ينوي الضباط الأحرار القيام بها، وكيف أنه هو الذي أشار على عبد الناصر به ، وأنه هو الذي دبر لقاء الرجلين: عبد الناصر ونجيب.

روي حلمي سلام في مذكراته «أنا وثوار يوليو» ما استطاع معرفته عن هذه الجزئية فقال :
"..وأذكر أنني خصصت حلقة في تلك السلسلة من المقالات التي كان هؤلاء الأصدقاء الثلاثة يغذونني بمعلوماتها، لعلاقة محمد نجيب بالثورة.. جعلت عنوانها: «عبد الحكيم عامر يقول لعبد الناصر بعد أن تعرف على محمد نجيب: لقد اكتشفت لك كنزا».. وكان ذلك - بالحرف - هو نص ما قاله لي عبد الحكيم عامر."

"وهذه العبارة نفسها سجلها محمد نجيب في مذكراته التي نشرها في مجلة «الحوادث» اللبنانية مستدلا بها على قدم علاقته بالثورة».. ولذلك قصة ترجع بنا إلى سنة ١٩٤٨ ، حيث كانت القوات المصرية تقاتل، للمرة الأولى، على أرض فلسطين. وكان طبيعيا - وقد كاشف عبد الناصر زميله

عبد الحكيم عامر بكل ما كان يدور في رأسه و صدره - أن يكشفه أيضًا بالصعاب التي أحسها تعترض طريق الوصول إلى «رجل» تتوفر فيه تلك «المواصفات» المطلوب توفرها فيمن سوف يتولى قيادة الثورة. وأخذ عبد الحكيم عامر على عاتقه مسئولية مشاركة زميله مهمة البحث عن ذلك القائد ."

ثلاثة من القادة

وقد قدم حلمي سلام تفصيلات مهمة ودقيقة تلقي الضوء على دينامية المناصب ما بين ثلاثة من كبار القادة هم: أحمد علي المواوي، ومحمد نجيب، وأحمد فؤاد صادق، الذي عُرف في تاريخ الثورة على أنه رفض قبول قيادتها، ونحن نفهم من مثل هذه النصوص المتاحه أن عبد الحكيم نفسه تعلم الشجاعة والإقدام والبطولة وحسن التصرف من محمد نجيب، وأنه لولا عمله معه ما صعد نجمه وهو شاب: في ذلك الوقت.. كان عبد الحكيم عامر يعمل كواحد من «أركان حرب» الأميرالاي «العميد» محمد نجيب الذي كان، بدوره، يعمل كقائد ثان لجبهة القتال.. ويتولى، في ذات الوقت، قيادة اللواء العاشر الضارب "وكانت لمحمد نجيب، في الميدان، سمعة عالية ومواقف مجيدة. فقد جرح هناك ثلاث مرات، ومنح وسام «نجمة فؤاد العسكرية» - وهو أرفع وسام عسكري - وتصدى للقيادة الفاشلة للجبهة ممثلة في قائدها اللواء أحمد علي المواوي.."

"وكعقاب له على هذا التصدي، أُبعد عن الجبهة إلى القاهرة.. فلما حل اللواء أحمد فؤاد صادق محل اللواء المواوي، بعد أن تأكد فشله في إدارة المعركة، كان أول شيء فعله القائد الجديد هو المطالبة بعودة محمد نجيب فوراً إلى ميدان القتال. "ومع عودة محمد نجيب إلى الميدان مرة ثانية.. ازدادت العلاقات بينه وبين أركان حربه عبد الحكيم عامر توطدا. ولأن أمر اختيار «الرجل» الذي سوف يقود «ثورة الجيش» عند تفجرها، كان همًا قائمًا بذاته بالنسبة لعبد الحكيم عامر، مثلما كان هما قائمًا بذاته بالنسبة لعبد الناصر، فقد عمل عبد الحكيم، من ناحيته، على الاقتراب أكثر وأكثر من محمد نجيب الذي كانت سمعته الشخصية.. وسمعته العسكرية.. قد حققنا له في صفوف الضباط والجنود، شعبية هائلة."

اكتشاف الكنز

يقول صاحب الرواية :

"وسرعان ما تبين عبد الحكيم عامر أن محمد نجيب، بما كان يدور في رأسه من أفكار.. ومن آمال وأحلام، ليس بعيدا مطلقا عن «الضباط الأحرار» ولا عن أفكارهم، ولا عن آمالهم وأحلامهم ."

"لم يتردد عبد الحكيم في الذهاب إلى عبد الناصر ، حيث كان يقاتل في عراق المنشية، ليقول له: "لقد اكتشفت لك كنزاً". وانطلق عبد الحكيم يحدث عبد الناصر عن محمد نجيب: عن شجاعته و وطنيته.. وعن أفكاره، وأحلامه."

ولما بدأت الصراعات العسكرية - العسكرية بين ضباط الثورة كان من الواضح أن عبد الحكيم يمثل مع عبد الناصر محورًا قويًا في مواجهة الضباط البارزين الآخرين الراغبين في تصدر الصورة بعد نجاح تنظيم الضباط الأحرار في تحقيق ما حقق من نجاح كان التنظيم يعتبره ملكًا له. وهكذا كان عبد الحكيم بحكم الحفاظ على الملكية الفكرية لما تحقق من نجاح، حريصًا على التصدي للغير أو للآخر بأكثر من حرصه على الفكرة أو على معاداة الفكرة الأخرى.

القدرة على القمع السريع

تبدت هذه القدرة الفائقة في مواجهة مشروعي الانقلابيين العسكريين اللذين واجها حركة ٢٣ يوليو في أول عامين ، وفي الأزمة الأولى وهي التي عُرفت باسم «أزمة المدفعية» في مطلع ١٩٥٣، فإن عبد الحكيم عامر لم يكن أقل حماسًا من زملائه للقضاء على أي تمرد، صحيح أن زكريا محيي الدين هو الذي تولى التحقيق مع هؤلاء، وصحيح أن جمال سالم كان أقوى المجاهدين بضرورة إعدامهم، وصحيح أن عبد الناصر هو الذي أدار المؤامرة الناقضة والمدمرة لبنية تنظيمهم أو شبكته، ولكن عبد الحكيم عامر كان مواجهًا لهم أيضًا بوضوح وحسم وشدة.

وفي أزمة سلاح الفرسان (مارس ١٩٥٤) أبدى عبد الحكيم عامر من ضروب القدرة على المخاطرة، والقدرة على القمع السريع قدرًا لم يحدث بعد ذلك في تاريخ الثورة.

ومن الثابت أنه هو (أو على الأقل فريقه المتعاون معه وفي مقدمته صلاح نصر)، الذي أمر الطيران بالتحليق فوق سلاح الفرسان، وأنه صرح بعد ذلك بأنه أمر بدك السلاح دكا، على الرغم من عدم موافقة زملائه في مجلس الثورة على ذلك، ومن الثابت أيضًا أنه كان صاحب فضل كبير في انتصار مجموعة عبد الناصر ومجلس القيادة بهذا الإرهاب والتهديد أو بهذه الجسارة والحسم. بل إن عبد الحكيم عامر في أزمة ١٩٥٤ ذهب إلى أبعد من ذلك حين أخرج بعض ضباط المدفعية من السجون ليقضوا على تمرد سلاح الفرسان.. وهي واقعة صحيحة ومذهلة، لا يقوم بها إلا سياسي ميكافيللي مُجيد للميكافيلية، ولكنها تدلنا على أن عبد الحكيم كان صاحب قدرة ما - بل قدرة عالية الجراءة - على التصرف في اللحظات الحرجة في السنوات الأولى من عمر الثورة، وهو ما يبدو أنه فقده بعد فترة!!

الفصل الثامن البدايات العربية في استراتيجية الحروب المعاصرة

التناقض الاستراتيجي

تتمثل علاقة العرب المبكرة باستراتيجية الحروب المعاصرة بوضوح شديد في الموقفين المصريين المتناقضين (أو المتباينين على الأقل) من الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) وحرب فلسطين (١٩٤٨).

ومع الاختلاف التام في الموقف المصري من الحربين ، فإن الدوافع الاستراتيجية الحاكمة للقرار السياسي كانت في حقيقة الأمر تنطلق من عقيدة واحدة تؤمن بدور واضح في تأمين الوطن من ناحية وتجنبه الشرور والمغامرات من ناحية أخرى .

و من الإنصاف أن نسارع إلى القول بأنه لا يمكن لنا أن يستقيم فهمنا لحرب فلسطين ١٩٤٨ والصراع العربي الإسرائيلي منذ تلك الحرب و دور مصر فيها ، إلا إذا استوعبنا حقيقة مهمة ، وهي أن أدبياتنا التاريخية والصحفية ، بل وتصريحات الرسميين الكبار ظلت جميعاً في عهد ثورة ٢٣ يوليو المبكر (التالي لعهد الملك فاروق مباشرة) تصور الإسرائيليين وقوتهم وجيشهم و عتادهم الحربي في صورة أقل بكثير من الحقيقة ، و كأنها حريصة بهذا التصوير على أن تمارس جلد الذات من أجل النجاح في ثنائية التهوين والتخوين معا ، وهي ثنائية كانت لازمة إلى أقصى حد لنجاح الانقلابات العسكرية في التوضع في الحياة السياسية العربية.

الاكتشاف المتأخر للحقيقة

ويكفي في الدلالة على صواب هذا الطرح أن نذكر هذا التعبير الشهير الذي لا يزال نردده عن فوز إسرائيل على خمسة جيوش عربية في حرب ١٩٤٨ ، بينما كانت حقيقة الأمر أن الجيش الإسرائيلي (أو ما سمي بالعصابات الصهيونية) الذي دخل حرب ١٩٤٨ ، كان ، حتى على مستوى العدد ، أكبر عددًا من مجموع الجيوش العربية الخمسة، فضلاً عن أنه كان أعلى منها بكثير كفاءة من حيث التدريب والتسليح والتأهيل ، فضلاً عن أنه كان قد وجد قبل نشأة الدولة اليهودية ، فضلاً (من ناحية رابعة) عن أنه كان قد اشترك بتكوين مكتمل النمو (سمي بالفيلق اليهودي) في الحرب العالمية الثانية بكل ما أتاحته من خبرة عملية ومران ومواجهة واتصالات.

حين سجل اللواء عبد المنعم خليل (قائد الجيش الثاني في حرب أكتوبر بعد الثغرة ، وقائده أيضاً في عهد الفريق فوزي قبل أن يُنقل لقيادة المنطقة المركزية) ما يضيء هذه الحقيقة وأضاءها

بالقدر المعقول في كتابه "في قلب المعركة" مرت مرور الكرام ، لكننا ركزنا عليها بما ينبغي في استعراضنا لكتابه ، ومدارستنا له في كتابنا "النصر الوحيد" وقد نسبنا الفضل إلى صاحبه الذي أثبت الحقيقة من خلال الوثائق والأرقام المنشورة التي أهملت الكتابات العربية قراءتها كالعادة.

الخداع التاريخي

و حين نشرنا كتابنا فقد أثارت هذه الحقيقة كثيرًا من الجدل في صالوناتنا ولقاءاتنا ، ثم بدأ (متأخرًا جدًا) ما يمكن أن نسميه الانتباه لحقيقة الخداع التاريخي الذي لجأت إليه الحكومات العسكرية العربية في تبرير وجودها وبقاء هذا الوجود ، وأصبحنا نكتشف أن ما تردد من لغط أو لغوط عن وجود خيانات عربية على مستوى الملوك لم يكن يشمل مصر بأي حال من الأحوال ، وأن الخيانة في الجيش المصري لم تنبت نظريًا وعلى مستوى الشائعات إلا على يد من كانوا يمهدون للانقلاب ، كما أنها ويا للمفارقة لم تحدث (فيما بعد هذا) إلا في عهد من تحدثوا عن الخيانة ، وعن أن معركتهم في القاهرة وليست في فلسطين، وقد كانت هذه العبارة (التي لم تتل حظها من التحليل المبكر) صادقة في تصويرها الدقيق لتخلي ضباط الانقلابات العسكرية المبكر عن مواجهة حقيقية مع الصهيونية والقوى الاستعمارية في فلسطين من أجل الاستيلاء على مقاليد الحكم في القاهرة ، حتى إذا ما جاء الوقت الذي أصبحوا مسئولين فيه (عن الدولة لا الجيش فحسب) ، فإنهم استثمروا الصراع مع إسرائيل في تبرير قفزهم إلى السلطة، ثم في تبرير وجودهم واستمرارهم فيها ، ثم في دفاعهم عن هذا الاستمرار ، رغم ما ارتكبه من الجرائم في حق الوطنية والوطن.

و قد يكون من المنطقي أو من الإنصاف أن نقول أيضًا إن الملك فاروق في موقفه من حرب فلسطين ومن الحرب العالمية الثانية قبلها (أي في مقاربتيه الاستراتيجيتين) لم يكن قادرًا تمامًا على أن يستبصر أو يستبطن (بمساعديه أو بقرائه) خفايا السياسة العالمية وخفايا المعارك الحربية التي كانت تجري هنا وهناك، ومن ثم فإنه لم يكن قادرًا على ما أصبحنا قادرين عليه اليوم من إلمام واسع وعميق بحقائق كثيرة عن كل ما يجري على الأرض هنا أو هناك.

الحماسة الطبيعية والمخلصة

كانت مشاعر الملك فاروق وحماسه الطبيعية المخلصة للوطنية تحكم موقفه وتطلعاته لتطورات المعارك في الحرب العالمية الثانية على نحو ما حكمت فيما بعد موقفه في قضية فلسطين. و نعود هنا إلى التنكير بحقيقة رأينا القائل بأن الملك فاروق صور مندفعًا إلى حرب فلسطين، رغم أن اندفاعه كان مفيدًا وكان متوافقًا مع ما يدعو إليه إيمانه بالانتماء للإسلام والعروبة والقيم

العليا، وهذا الحكم باندفاع الملك فاروق صار الآن من باب الظلم الدعائي المعروف السبب ، لكننا نلاحظ أيضا أن هذا الظلم المعروف والمفهوم كان قد صور الملك فاروق من قبل هذا مندفعًا أيضًا في قراره السلبي أو المتعقل بعدم المشاركة في الحرب العالمية الثانية إلى جوار الحلفاء، وذلك على الرغم من أن حزب السعديين وعلى رأسه أحمد ماهر باشا كان مندفعًا تمامًا إلى إعلان الحرب بكل ما تملكه مصر من قوة وإمكانات.

حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل

في ذلك الوقت فإن الملك فاروق لم يجد في إعلان الحرب واجبًا دينيًا ، ولا قوميا، ولا وطنيا ، ولا مصلحة عاجلة أو آجلة ، واستشار في هذا كثيرين كان على رأسهم شيخ الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي فأكدوا له ظنونه، وأصبح الشيخ المراغي العظيم هو لسانه المعبر حين صاغ الفكرة ببلاغة حاسمة فقال : إنها حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وهكذا كان الملك فاروق هو العامل الحاسم الذي منع مصر من الاشتراك (بكليتها) في الحرب العالمية الثانية ولم يكن العامل الحاسم هو قرار أحد من ساستنا ولا من أحزابنا.

لا أبتعد بالقارئ عن الحديث عن موطن الحكمة (أو انعدامها) في قرار الملك فاروق، لكنني أقرب له الأمر بتصوير كاميرا السينما المقتربة من الملك ، وقد أخذ يطالع تاريخ الدولة العثمانية التي كان اندفاعها إلى الحرب العالمية الأولى فرصة ذهبية للأعداء المتربصين في القضاء عليها وإنهاء وجودها ولم يكن فاروق ليغامر بمصر من حيث رأى أثر المغامرة العثمانية وما فعلته منذ سنوات ليست بالبعيدة.

الدور الذي افتقدته الدولة العثمانية

من الحق أن نعترف (من زاوية أولى) بدور الملك فاروق في إنقاذ مصر من الحرب العالمية الثانية، وهو موقف عظيم لملك عظيم لم تجد الدولة العثمانية قبل عشرين عامًا من يقوم لها به عندما بدأت نذر الحرب العالمية الأولى وبدأت الدولتان الألمانية والنمساوية تطلبان من العثمانيين أن يقفوا معها أمام طغيان بريطانيا وفرنسا وروسيا، وهو الطغيان الذي ذاق الألمان والعثمانيون والنمساويون (على حد سواء) قسوته وجبروته وتكراره.

هذا الرأي الذي أقوله في حق الملك فاروق وفضل الملك فاروق في إبعاد مصر عن الحرب العالمية الثانية لا ينفي ولا يتعارض مع رأيي الآخر الشهير الذي أقول فيه إن أكبر خطأ للسياسة المصرية في ذلك الوقت هو ابتعادها بالجيش المصري عن الحرب العالمية الثانية، ذلك أن ابتعاد هذا الجيش عن هذه الحرب جعله يعاني من ذلك الحين من قصور التجربة المعلمة لكيانات

الجيش، والكفيلة بصهر معدنها ، ولهذا فقد ظل هذا الجيش بعيداً ما استطاع عن المواجهات وعن المبادرات (باستثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ التي لم يكن منها مفر)، وأصبح هذا الجيش على نحو ما وصفه به السوفييت أقرب ما يكون إلى أن يكون جيشاً برجوازيّاً دون أن يكون لرجاله ذنب فيما آل إليه حال هذا الجيش، فلم يكن الخطأ خطأهم ، وإنما كان خطأ رجال السياسة في ذلك الوقت.

الرأيان المتكاملان

وخلاصة قولي في هذه الجزئية تكمن في رأيين لا ينفي أي رأي منهما الرأي الآخر.

- حافظ الملك فاروق ، ومعه ساسة عظماء ، على مصر من أن تلقى في الحرب العالمية الثانية مصير الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى.
- قصرّ الساسة المصريون - ومعهم الملك فاروق - في استغلال فرصة التعلم والبناء والتدريب والمشاركة والتأصيل والقيادة التي كانت متاحة للجيش المصري لو أنه شارك في الحرب العالمية الثانية.

ومن حسن الحظ ، أن حرب فلسطين سرعان ما جاءت لتخطو بالقوات المسلحة المصرية خطوات واسعة في سبيل التوجه الاستراتيجي الصائب.

الفصل التاسع عشق الديكتاتوريات العسكرية العربية للفشل

الديكتاتورية ليست حكرا على العسكريين

من بديهيات السياسة التي علمها التاريخ للبشرية أن الديكتاتورية ليست حكرا على العسكريين ، ولا حكرا على النظم العسكرية ، فكم من نظام ديكتاتوري يتبناه المدنيون أو الوطنيون أو القوميون أو المتدينون ويصنعونه ، وكم من عهود وفترات ملكية تسيطر عليها الديكتاتورية سيطرة كاملة ، بل إنه في كثير من هذه الأحيان تنجح الديكتاتوريات نجاحا بارزا ، لكن هذا النجاح يتطور بفعل الزمان (أو المكان) و سرعان ما يتوقف أو يتحول أو يرتقي للدستورية أو للديموقراطية نفسها . و من دهاء التاريخ الإنساني أن فترة ازدهار وصعود الانقلابات العسكرية العربية واكبت فترة الحرب الباردة بما تضمنته من قطبية معروفة امتدت حتى مناهج الحكم فأصبحت الديموقراطية منهجا سائدا في معسكر الغرب في مقابل سيادة الديكتاتورية في معسكر الشرق ؛ وتطورت الأمور في هذا الاتجاه تطورا شبيها بما حدث من ازدواجية محددة في نظام قيادة المركبات الآلية ، حيث تتحدد كل نظم المرور تبعا لموضع عجلة القيادة هل هو إلى اليسار أم إلى اليمين وبناء عليه تتحدد اتجاهات السير والدوران والتخطي الخ .

ونحن نعرف أن بريطانيا لا تزال تستخدم ما يسمى بالنظام الأيسر وكذلك تفعل ماليزيا ودول قليلة العدد لكن هذا في نهاية الأمر لا يغير من منهج صناعة السيارات ولا من تكنولوجيا بناء الطرق إلا فيما يتعلق بالاتجاه فحسب.

نظرية الحزب الواحد

هيا التاريخ بدهائه فرصة (كانت براقه) لاختلاف نهج الحكم في المعسكرين السياسيين الكبيرين اللذين وجدا بعد انتهاء الحرب العالمية ، فأصبح السوفييت والصينيون واليوغوسلاف وما عرف على أنه دول حلف وارسو يفضلون مع انتهاجهم للشيوعية أن يأخذوا بنظام الحزب الواحد والديكتاتورية ، أيا ما كان مسماهما (تأمل في مغزى مصطلح الديكتاتورية البروليتارية على سبيل المثال) .

و جاءت الانقلابات العسكرية العربية وفي الذروة منها تجربة جمال عبد الناصر اللامعة في مصر فأثرت منذ شهورها الأولى أن تأخذ بمنهج الديكتاتورية ، ولم يكن دافعها في هذا الاختيار

دافعا فكريا ولا اجتماعيا ، كما أنه لم يكن استحضارا لتجارب الدكتاتوريات التي كانت ناجحة وبراقة في ذلك الوقت ، وعلى رأسها تجربة سنالين .

التصميم الأمريكي على عدم عودة الوفد بالانتخابات

لم يكن هذا الإيثار أيضا نتيجة لإيمان بعض النخب العربية في وقت من الأوقات بأن حال الشرق لن ينصلح إلا بمستبد عادل ؛ نعم ، كانت كل هذه التأثيرات والإجاءات موجودة في الذهن وفي المناقشات ، لكنها لم تكن السبب الحاسم والمباشر في الاندفاع نحو الدكتاتورية بأقصى سرعة على نحو ما حدث ، وإنما كان العامل الحاسم (غير المعروف بالقدر الكافي حتى الآن) هو تصميم الولايات المتحدة الأمريكية على عدم عودة الوفد بالانتخابات .

وكانت هذه نتيجة محسومة ، وهو ما نراه واضحا كل الوضوح فيما كان الرئيس جمال عبد الناصر يدلي به في ساعات الصفاء لخالد محيي الدين.

مفارقة سياسية

في لغة الفلسفة السياسية ، لا يمكن القول بأن هناك مفارقة سياسية في حرص الولايات المتحدة الأمريكية على انتهاجها للديموقراطية في وطنها وحرصها في ذات الوقت على منع الآخرين من الاستمتاع بهذه الممارسة و مكتسباتها ، بل ربما كان هذا المنطق هو الأقرب للطبيعة الإنسانية المتسلطة التي تخص من يعتقدون أنهم هم السادة بطعام تحرم منه العبيد وتجعل للعبيد طعاما تجعل السادة يأفون منه بحكم طبقيتهم ، حتى لو أن قوانين البيولوجيا وعلوم التغذية والفسولوجيا حكمت بوجود مزايا في الطعام والكساء الذي فرضته الطبقة البغيضة على الفقراء وأبعدته عن الأغنياء بطرق التآفف (من قبيل ما حدث بالفعل مع الخبز الأسمر والعسل الأسود ومنتجات الشعير والأذرة ومستخلصات القشور والنسيج غير المصبوغ الخ.

حجب الانتقادات

في لغة التفكير في استشراف تحقيق نجاح يعبر عن النهضة السياسية ، كانت الدكتاتورية كفيلة بتحقيق إنجازات حقيقية ليس فيها شك ، لكن المفاجأة الساخرة جاءت من اعتماد الدكتاتوريات العسكرية العربية (وفي مقدمتها الناصرية) على إثبات قدرتها من خلال نجاحاتها الفائقة في حجب الانتقادات ، ومن ثم في مبالغاتها في تصوير نجاحات وهمية أو بالأحرى كاذبة وربما غير موجودة من الأساس.

المبالغة في تصوير نجاحات وهمية

مع مضي السنوات كانت الناصرية و العسكريون العرب المكررون لتجربتها مع شيء من التجويد والتحديث والتوكيد والصقل يزدادون إيماناً بأفضلية الديكتاتورية على الديمقراطية ويزدادون يقيناً بأنهم كانوا محظوظين بالاهتداء بالأنماط البارزة في تجربة المعسكر الشرقي وتكرار هذه الأنماط ، والنسج على منوالها ، بل إنهم ذهبوا إلى خطوات أوسع في سبيل تعزيز الانتماء الفكري والأيديولوجي إلى هذا المعسكر ، بل إنهم اعتبروا أن هذا التوجه هو التقدمية وأن النكوص عن هذا الطريق في أي لحظة هو الرجعية.

ومن المؤسف أن مناهج التعليم في ذلك العصر تشبعت بهذه الأفكار، ولا يزال نعاني من آثار هذا التشبع أو التسمم .

الديكتاتورية أصبحت غاية في حد ذاتها

ومع ما كان يتمتع به أغلب هؤلاء العسكريين العرب من ضعف في الثقافة الحضارية والعلمية ، فقد تطورت بعض عقائدهم تطورا منتكسا بشدة جعلهم يعتبرون الإسلام نفسه مرادفا للرجعية وكان من الطبيعي في هذه الظروف أن تجددهم يسابقون الزمن إلى وثنية جديدة لا تقف عند عبادة الفرد وإنما تمتد لتعلى من قدر الخرافات والخزعات وتجعلها بمثابة قوة محركة لكل أمنية قومية أو وطنية.

و من الواضح لكل دارس للتاريخ المعاصر أن الديكتاتوريات العسكرية العربية مضت في سبيلها حتى تخطت حدود الفكرة الديكتاتورية نفسها ، فلم تعد الفكرة الديكتاتورية وسيلة للإنجاز السريع أو للحل الحاسم ، وإنما أصبحت غاية في حد ذاتها ... ومن العجيب أن مقدمات الانقلاب العسكري المصري لم تمنع في أن تظهر (وبصوت عال) حنيننا إلى الزمن الجميل ، وهو الحنين الذي كان يقود أوتوماتيكيا إلى التوحد مع شخص أي زعيم يستحضر لحظيا أو مرحليا لأداء دور الزعامة والتوحد أيضا مع المؤسسة العسكرية التي هي حسب تعبيراتهم المخاتلة تمثل المؤسسة الوحيدة الناجحة والقادرة والمالكة.

في صعيد آخر ، فإن المراجعات والدراسات (منذ منتصف الستينيات من القرن الماضي) كانت سرعان ما اكتشفت في الديكتاتوريات العسكرية باقاة من عناصر الفشل المميت أو القاتل التي ترتبط في أصولها المسببة بالعسكرتاريا العربية بأكثر من ارتباطها بالنهج الديكتاتوري نفسه ؛ وقد جاء هذا الارتباط نتيجة لما تعانیه العسكرتاريا العربية نفسها من عيوب بنيوية وتاريخية أساسية.

السلطة المعنوية

وأول هذه العيوب هو رفض الديكتاتور (وهو رفض فطري ، أو غريزي إذا أردنا اللفظ الأدق) لأي قدر من النجومية يستحوذ عليه غيره ، وبخاصة أنماط النجومية اللامعة الصاعقة التي يحققها الرياضيون و لاعبو الكرة حين تتاح لهم النجومية وهم لا يزالون في أوائل العشرينات ، وكذلك النجومية التي تحققها الوجوه الفنية الجديدة وهم في أواخر العشرينات يستيقظ الديكتاتور ذات صباح فيجد من لم يكن له أي ذكر بالأمس وقد أصبحت أخباره وصوره سابقة على الديكتاتور نفسه ، فيرى في الأمر تجاوزا خطرا لسلطته المعنوية التي بناها بالقتل والحرق عبر شهور وسنوات ، ويرى شهرة النجم الجديد وكأنها لا محل لها من الإعراب، ومن ثم يبدأ إجراءاته ومؤامراته الخفية المؤدية بكل قسوة إلى إطفاء نجومية غيره ، بل ربما إلى تحويل أي نجم صاعد إلى مجرم مستحق للقتل (المعنوي على الأقل) يحدث هذا بينما أن أركان الحضارة من الرياضة والفن ومن قبلهما العلم والأدب (وهي عناصر النهضة الموحية والملهمة) لا يمكن أن ترتقي بدون النجوم حتى انه ليتمكن النظر إلى تاريخ الحضارة على أنه تاريخ للنجوم.

الإقصاء والاستئصال

ثاني هذه العيوب هو حرص طبقة المتنفذين الجديدة (وهو حرص بشري مفهوم الدوافع) على إقصاء الناجحين ، بل واستئصالهم بكل المبررات المعروفة ، ومن ثم صعود الأقل كفاءة وإنجازا وقيمة. ثالث هذه العيوب هو إدمان الفشل بسبب غياب مؤسسات النجاح المهني الحقيقية ، و الحرص على وجود مؤسسات شكلانية الطابع والأداء كبديل لها ، وذلك من قبيل الأكاديميات المظهيرية المحكومة بالانضباط المظهري فحسب. رابع هذه العوامل أن النجاح الحضاري نفسه لا يصب في مصلحة الديكتاتورية لأنه يخلق توازنات جديدة لم تتحسب لها بنية الديكتاتورية ، ومن ثم فان هذا النجاح الحضاري حتى لو كان مستعارا من الخارج بكلياته وجزئياته قادر على أن يغير قواعد اللعبة السياسية على نحو ما تظن الثورات المضادة أنه قد حدث في ثورات الربيع العربي وما لا يزال يحدث فيها على الرغم من طغيان وجبروت مسارات الثورة المضادة.

المظهر والجوهر

خامس هذه العوامل أن الديكتاتوريات العسكرية تحرص بطبيعتها على أن تولى عناية بالمظهر المنضبط على حساب سلامة الجوهر ، بل إنها تعتمد في صورتها على

- الاستعراضات بدلا من الإنجازات
- و الطابور بدلا من الموتور
- و التريدي بدلا من التسديد
- و التلقين بدلا من اليقين
- و السماع بدلا من الإقناع
- و الزهوة بدلا من الفكرة.

الفشل ضمان للاستمرار

سادس هذه العوامل أن الديكتاتوريات العسكرية العربية وصلت بنفسها وبممارساتها إلى أهم اكتشاف سياسي عربي ، وهو أن الفشل يضمن استمراريتها على حين أن النجاح يهدد بتقليص دورها ، ومن ثم فإن هزيمة ١٩٦٧ مكنت الديكتاتورية من دعم وجود النظام واستمراره ليزيل آثار العدوان ، على حين أن النصر لم يكن ليفعل هذا.

وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا الاكتشاف أن ازدهرت في أوساط طبقة المتنفذين العليا في الديكتاتوريات العسكرية فكرة خبيثة ، وهي فكرة التحذير من المشكلات المترتبة على حل المشكلات المزمنة واللجوء إلى تصوير المشكلات المزمنة كجزء من الاستقرار المحقق لسلامة المجتمع الديكتاتوري نفسه.

ولست أذيع سرا إذا قلت إننا في الطب والهندسة على حد سواء نحترم ونحن مضطرون (و بقدر هو في الغالب محدود) المنطق النفعي أو البرجماتي في مثل هذا التفكير الخاطئ .

الباب الرابع الهوية وتقلبات الإمبريالية

الفصل العاشر دور اضطراري يؤديه الرئيس الأمريكي

الشخصيات المحورية

يكاد المتأملون للتاريخ الإنساني في مراحل الانتقالية يؤمنون بأن السياق التاريخي يحل مشكلاته العميقة بوجود شخصيات ذات طبيعة مختلفة ، ربما تبدو حادة الاختلاف أو مضطربة الطابع ، لكن قيمتها أنها تلعب دور شخصيات مفتاحية ومحورية تتحول الأحداث بسببها من مسار العقل إلى مسار الحيود عن العقل من أجل استثارة فعالية عقل جديد لعصر جديد .

ونستطيع أن نقول إن هذه الشخصيات (مهما كانت منقطعة عن السياق المعرفي والتوجه الحضاري) تستطيع أن تلمع وتسطع من دون إنجاز تراكمي ولا تحولي وإنما يتمثل إنجازها في إزاحة معطيات منظومة قديمة (و ربما تكون الإزاحة خشنة الطابع) لإفساح المجال أمام تجريب المستحدث ، مهما كان قدر الغرائبية في هذا الجديد المُستدعى من ماض متجاهل أو المُستحدث من حاضر مستنكر .

الكاتبولزم البيولوجي

في هذا الإطار أيضا نستطيع أن نقول إن أداء مثل هذه الشخصيات يتخذ من ظاهرة الكاتبولزم البيولوجية نموذجا لسلوكياته وسرعاته ، فإذا علمنا أن هذه الظاهرة البيولوجية تمثل المرحلة الأولى من هضم الطعام قبل إتمام تمثيله وامتصاص بعضه وإخراج بعضه الآخر ، أدركنا مدى حاجة السياق التاريخي لها .

وقد كان البيولوجيون المؤسسون من الذكاء ، بحيث اختاروا لمرحلة الكاتبولزم مصطلحا بيولوجيا دالا في حد ذاته من حيث مجازة اللغوي وهو مصطلح الهدم ، و هو كما نرى مصطلح مغاير عن المصطلح المستخدم في الهندسة والبناء ، فهو تفتيت وتحليل وتجزئة مبرمجة وليس مجرد تحطيم وخلخلة وتكويم ، لكنه في جوهره ينطلق من نفس الفكرة العقلية المتحدثة عن الإزالة والبناء ؛ والتخلي والتخلي ، والتفريغ والملء .

الهضم والهدم

ومن عبقرية اللغة (سواء في هذا العربية وغيرها من اللغات) أن يأتي هذا المصطلح (الهضم) مرتبطا في بنيته بالمصطلح الدال على النشاط الفسيولوجي الظاهري (الهضم) على نحو ما أتى مرتبطا في دلالاته باللفظ الدال على العملية المعادلة التالية (البناء) ، ولهذا يقال في الإنجليزية ونحوها إن الميتابولزم ينقسم إلى كatabolizm و Anabolizm على نحو ما يقال في العربية من أن الاغتذاء ينقسم إلى هدم وبناء ؛ وهو المعنى الذي يحتفظ بنفسه اذا ما استبدلنا بكلمة الاغتذاء مرادفات لها من قبيل الأيض أو التمثيل الغذائي.

القبطية الواحدة

في ضوء هذه الصورة الواضحة لمعنى جوهري من معاني الحياة البيولوجية ، نستطيع أن ننظر إلى ما يمثله الرئيس الأمريكي الخامس و الأربعين دونالد ترمب في مسار تاريخ بلاده وسياستها وتاريخ العالم وتوازناته الجيوبوليتكية والسياسية والاقتصادية ، فنستطيع أن ندرك في لمح البصر أن هذا الرئيس بكل خروجاته عن النص (و بكل خروقاته للصور النمطية) يمثل بلغة المسرح بطلا مسرحيا ذا دور مرسوم ، وقد تزايدت حاجة التاريخ المعاصر إليه ليحطم الأسطورة التي تم التبشير بها بعد زوال الاتحاد السوفيتي ، وهي أسطورة العالم ذي القبطية الواحدة (التمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية).

كانت هذه الأسطورة قد بلغت من القبول العقلي مبلغا جعل كثيرين يظنونها حلا للصراعات التاريخية ، و بشرى بنهاية التاريخ أو على الأقل تاريخ الاعترافات والمعارك الإقليمية والمذهبية ، لكن خيرة ثلاثين عاما مضت من تطورات العلاقات الدولية وتفاقمات النزاعات الإقليمية وتلاعبات الزعامات المحلية ، وتناقضات السلوكيات الأمريكية جعلت الناس يؤمنون إيماننا لا يقبل الشك بأن الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ليست مرتاحة لأن تكون القطب الأوحده ، وإنما هي تريد أن تعود لتكون القطب الأعظم باستمرار (بدلا من الأوحده).

الأعظم بدلا من الأوحده

لهذا السبب على وجه التحديد وليس على الوجه الوحيد ، فإن أطروحات الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة الأخيرة ظلت بكل الوسائل تعبر عن رغبة عارمة (و غير مكتومة) في العودة إلى مكانة القطب الأعظم بدلا من مكانة القطب الأوحده ، مع أن البسطاء من أمثالنا يظنون أن المدلول في الحالين واحد ، وهو أن الامر بيد الولايات المتحدة الأمريكية (سواء بسبب أنها

القطب الأوحده أو الأعظم باستمرار) وأن وحدة المدلول تحل المشكلة، بينما هي تحول بين كل مشكلة معاصرة وبين الحل .

لا شك في وجود أسباب قوية تجعل مؤسسات الولايات المتحدة الأمريكية حريصة كل الحرص على نقض يدها من مكانة القطب الأوحده، وحريصة على استعادة مكانتها في ظل ثنائية ترسم استراتيجيتها من خلالها حتى لو كانت هذه الثنائية كاذبة أو مزيفة أو مصطنعة أو ممسوحة . وأول هذه الأسباب وأبرزها هو حرص الولايات المتحدة الأمريكية على التحلل من مسؤوليات القطب الأوحده تجاه القيم الإنسانية العليا بكل ما تعنيه هذه القيم من سمو خلقي و ثمن معنوي ، فالولايات المتحدة الأمريكية أصبحت تكرر التلميح الموحى إلى أنها لا ترى فائدة من أن تلتزم بقيمة العدل في أي موقف تعودت على أن تستفيد فيه من ممارستها للتنافسية ، باعتبارها طرفا لاعبا وليس حكما أو أبا ؛ والمثل على هذا واضح ووضوح الشمس في نقض الولايات المتحدة الأمريكية لكل اتفاق تجاري دولي يتيح العدالة ، أو ينصف أصحاب المواد الأولية، أو يحافظ للأوربيين على استقلال الإرادة في طعامهم، ومنتجاتهم الزراعية، أو يحافظ للبشرية على حقها في بيئة نظيفة خالية من الابتعاث الحراري وغيره من المشكلات المماثلة.

جاذبية العودة إلى الحرب الباردة

في أجواء كل هذه المناقشات والمداومات بدا بوضوح أن الروح الأمريكية متململة إلى أقصى حدود التملل من المسؤولية الدولية ومن تكلفة المكانة الأبوية، وأنها تفضل بكل ما يمكنها أن تعود مرة أخرى إلى حرب باردة (أو حتى ساخنة) تغطي بها ما يتطلبه الموقف من اللجوء المعتاد إلى الأساليب المجرمة أو المحرمة على حد سواء .

وإذا أردنا تشبيها فولكلوريا لهذا المعنى، فإن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت تفضل لنفسها دور المافيا العالمية على دور الحكومة العالمية، أو أنها أضحت تفضل دور الفتوة على دور العمدة، بل إنها إذا مضينا مع استيحاء دلالات مفردات لغة القاهرة الشعبية التي صورها نجيب محفوظ (في سينما الشعب وأدبه) تفضل دور البلطجي على دور الفتوة، فالبلطجي يمارس نشاطه دون أي التزام بحماية المهتمين أو بعض القيم الأصيلة على نحو ما هو الحال مع الفتوة. جاء الرئيس ترمب إذن ليحل للولايات المتحدة الأمريكية بتصرفاته قبل تصريحاته مشكلة العودة إلى آليات وممارسات عالم القطبين والحرب الباردة، لتحقق نزواتها ومكاسبها في ظل صراع تنتصر فيه ولا تكون مسئولة عن قيم ولا قانون دولي ولا عن حقوق إنسان ولا شعوب.

البحث عن بطولة مسرحية

من الإنصاف أن نقول إن الولايات المتحدة الأمريكية في ظل الرئيس السابق باراك أوباما كانت تبحث عن طريق لتمكين شخصية مثل الرئيس بوتن من أن يلعب أمامها و برضاها الكامل ، بل وبتشجيعها دور البطل التذكاري في خلق قوة مناوئة ؛ ولهذا فإنها تركته يعبث ما شاء من العبث في أوكرانيا ثم أن يضاعف هذا العبث أضعافا مضاعفة في سوريا.

بل إن الولايات المتحدة الأمريكية نفسها أوعزت لعملاء مخلصين لها إن يسيروا مظاهرات شعبية محدودة توحى بهذه القطبية المظهرية الكاذبة المصطنعة.

ثم جاء الرئيس ترمب ليعبر بوضوح عن هذه الرغبة الأمريكية جامعا بين الفجاجة والفظاظة في خطاب سياسي واحد لم يتورع فيه عن اللجوء إلى مصطلحات نازية صريحة ، كما أنه لم يتورع فيه عن نفي الآخر لاستدعائه واستعدائه بكل ما هو ممكن .

العلاج بالصدمة

وعلى الرغم من تعدد الأشخاص الذين يراهم الرئيس ترمب لائقين لأداء دور الآخر من أجل خلق الثنائية التي وصفناها ، فقد كانت المفاجئة تكرر نفسها ، بأن يبتعد كل طرف من هذه الأطراف عن تحقيق رغبة الرئيس ترمب مهما كانت وسائلهم : فالكوريثان تتصالحان ، وروسيا والصين تتجاهلان الصراع معه ، وألمانيا و الأوربيون يتمهلون ، والسعودية وحليفاتها يدفعون ، ومن ثم يزداد شبق الرئيس ترمب بأداء دوره المزعج للإنسانية حتى وإن كان ضرورة أمريكية.

لكن البشرية، فيما يبدو ، وصلت للنضج الكافي لحماية نفسها مما هو دون البشرية من صدمات حتى وإن كان لابد من علاج بالصدمة .

الفصل الحادي عشر الجاسوسية ما بين الهجان و لورنس العرب

عصر حصرية الإرسال

لأسباب كثيرة شائكة و شائقة (معا) ارتبط الحديث عن أعمال المخابرات والجاسوسية وذكرها في الذهنية العربية المعاصرة بالإنتاج الدرامي السينمائي ثم التلفزيوني ؛ وليس من شك في أن مسلسل رأفت الهجان كان أبرز هذه الأسباب الكثيرة ، فقد تصادف أن كان هذا المسلسل (بأجزائه الثلاثة) واحدا من أبرز الأعمال الدرامية الكبيرة التي عرضتها الشاشة الصغيرة في نهاية عصر يمكن لنا أن نسميه بعصر حصرية سلطة الإرسال التلفزيوني قبل أن تبدأ إرهابات عصر الفضائيات الواسع المدى فيما يعرضه من اختيارات متعددة.

وقد حظي هذا المسلسل المصري الذي عرض في وقت "الذروة الدرامية " حسب التعبير التسويقي التجاري بنسب مشاهدة عالية جدا ، كما صادف ظاهرة أخرى مهمة كانت قد بدأت لتوها وهي ظاهرة التوسع الصحفي في التغطية الإخبارية (و النقدية) للأعمال الدرامية ، وهكذا ظلت الجماهير كل يوم تتحدث عن حلقاته السابقة في النهار ، وتشاهد حلقاته الجديدة في الليل ، وكانت الجماهير على اختلاف مستوياتها تفعل هذا بسعادة ونشوة ، وعلى نحو حافل بالحميمية مع النص ومع الأدوار الفنية المرسومة والمتقصة ومع أصحابها ومسارها في حياة المسلسل و بيئته أو بيئاته المتعددة ، كما أصبحت المناقشات العائلية والمجتمعية تتفاعل باطراد مع التشخيص أو التجسيد المتاح في كثير من حوارات المسلسل للمعاني السياسية الباطنة (وغير المباشرة) التي لم يكن للمشاهد العربي عهد بها.

زهو الستينيات

وقد زاد في جرعة الانفعال والانطباعات الذهنية أن مؤلفه الأستاذ صالح مرسي كان قد وصل إلى درجة متميزة من النضج الروائي والمسرحي الكفيل عن حق بتحقيق الإبهار وقطع أنفاس المشاهدين من خلال رسم متقن للشخصيات ، و في ذات الوقت ، فإنه كان قادرا على تقديم كثير من المعاني الوطنية بطريقة إنسانية ، وسواء أكانت تفصيلات المسلسل التي قدمها صالح مرسي حقيقة أم خيالا فإنه في النهاية رفع معنويات المصريين بطريقة لم تكن تخلو من زهو الستينيات القائم على التصور المطلق للعظمة الوطنية ، وهو تصور شبيه إلى حد ما ومع الفارق بتصور الزعيم الألماني النازي أدولف هتلر للتفوق الأري ، ومع هذا فقد كانت نتائج نصر أكتوبر القائمة

على أرض الواقع بمثابة سند صلب وقوي لتصورات صالح مرسي و تصويراته في العمل
الدرامي المعني بالجانب المعنوي من حياة أمة حاربت وانتصرت بعدما انهزمت .
ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى ما لخصناه من قبل في كتابنا "الثورة والإحباط :مذكرات
أساتذة الأدب " من حديث الأستاذ صالح مرسي عن العوامل التي ساعدته على نضج فني متميز
أهله للمكانة التي احتلها في مقدمة الأدباء الذين مارسوا هذه النوعية من الكتابة الحادة النصل التي
تتطلب خبرات خاصة ، وقد نقلنا عن هذا الأديب العظيم اعترافه بما أسداه له الأستاذان الكبيران
توفيق الحكيم و نجيب محفوظ من توجيه رقيق وبخاصة بعد عمليين مهمين روايته السيد البلطي،
و كتابته لقصة حياة الفنانة تحية كاريوكا.

الصورة النمطية للجاسوس

ومما يجدر ذكره مما قد يدعش له القارئ أن الأستاذ صالح مرسي كان قد بدأ نشر مادة رأفت
الهجان منذ مطلع ١٩٨٦ في مجلة المصور ، لكن النشر الصحفي لم يحقق للقصة أي ذكر يمكن
مقارنته بما حققه المسلسل التلفزيوني.

كذلك فإن من الإنصاف الواجب أن أشير إلى التفوق الساحق الذي أدى به الفنان محمود عبد
العزیز هذا الدور المركب والمعقد الذي رسمه صالح مرسي وأطره المخرج القدير الأستاذ يحيي
العلمي ، وقد كان أداء محمود عبد العزیز لهذا الدور على هذا النحو علامة فارقة في تاريخه الفني
، بل ربما أصبح هو دوره الكلاسيكي في الأذهان ، كذلك كان هذا المسلسل علامة فارقة في
التاريخ الفني لتصوير الممثلين المصريين للشخصيات التاريخية التي لم يعرفها المشاهد في الحقيقة
، وإنما عرفها على الشاشة فحسب ، ولست أبالغ إذا قلت إن الجماهير المنتظرة لفيلم أشرف مروان
ستقارن بين أداء من يلعب دور أشرف مروان في فيلم الملاك وبين أداء محمود عبد العزیز في
مسلسل الهجان ، وسوف يدفعها عقلها الباطن إلى أن تقيس أداء أشرف مروان على الصورة
النمطية المستقرة للجاسوس على نحو ما قدمها محمود عبد العزیز في رأفت الهجان .

ما إن انتهى المسلسل حتى كانت الأخبار تعلن عن حريق في برج مبني التلفزيون المصري ،
وكان إسرائيل (في تصور البعض) كانت حريصة على أن تنتقم بعمل رمزي في الوقت المناسب
بيد أن ذلك الحادث ظل حادثا عابرا فحسب ، إلى أن جاءت رواية إسرائيل عن أشرف مروان
لتحدث زلزالا عنيفا ومدمرا وذي توابع لم تنته حتى الآن .

لورنس العرب

قبل هذا كانت للعرب تجربة مهمة ، بل في غاية الأهمية ، لأنها لعبت دورا انطباعيا شبيها بدور رأفت الهجان مع اختلاف التوجه والنتيجة، كانت هذه التجربة بمثابة تجربة العرب المبكرة مع أفلام الجاسوسية ، وكانت مع فيلم لورنس العرب (١٩٦٢) الذي أخرجه ديفيد لين و قدم فيه قصة الضابط الإنجليزي الشاب لورنس الذي كلف بمهمة مخابراتية خبيثة ومن طراز حساس ، و قد جاءه هذا التكليف من قبل السلطات البريطانية التي ألبت وحرصت مجموعة من العرب بقيادة الشريف الحسين بن علي شريف مكة في تمردهم على دولة الخلافة العثمانية.

وقد صور فيلم لورنس العرب وأنتج باعتزاز غربي راسخ ومتعقل بما يوحي به العمل الفني من نجاح المخبرات الغربية في هذه المعركة الغادرة الطويلة النفس القائمة على استغلال وتوظيف وتضليل المخبرات البريطانية للعرب السذج استراتيجيا من أجل دفعهم للقضاء على قوتهم الذاتية المستمدة من وجود إسلامي عالمي متمثل في دولة عريقة تعدى عمرها القرون في مقابل محاولة هوائية و غير ناضجة لتحقيق رؤية قصيرة النظر كانت نهايتها تفتيت كياناتهم على النحو الذي حدث بالفعل منذ مائة عام وأدى إلى نهاية دولة الخلافة العثمانية مع انفصال جزيرة العرب و شمالها في الهلال الخصيب عن آفاق الخلافة الإسلامية ، لا لمصلحة جماعة العرب الذين تعاونوا مع البريطانيين وإنما لمصلحة قوى أخرى متربصة ومتعاونة أيضا مع البريطانيين ضمن المحاولات المتعددة لتدمير هذه الدولة من أطرافها.

التعاطف

ومن الطريف المشهور، أن هذا الفيلم نال تعاطفا عربيا من نوع خاص يتعلق بأحد عناصر فريق العمل الذي أنجزه ، وذلك بسبب اشتراك الممثل المصري عمر الشريف فيه بدور الملك على (ملك الحجاز لفترة قصيرة جدا) ، والذي هو أحد أبناء الشريف حسين بن علي وشقيق كل من الملك عبد الله ملك شرق الأردن و الملك فيصل الأول ملك سوريا ثم العراق (الأمير فيصل آنذاك) ، وقد كان العرب فخورين بالطبع بظهور عمر الشريف أمام ممثلين عالميين من طبقة أنتوني كوين (في دور عودة أبو تايه) وبيتر أوتولو (في دور لورنس) و ديفيد لين نفسه. ومن غير المشهور أن الفنان جميل راتب أيضا اشترك في تمثيل هذا الفيلم .

المصدر الأول للمعلومات التاريخية

من الجدير بالذكر (والتعجب أيضا) أن هذا الفيلم لا يزال (للأسف الشديد) يمثل المصدر الأول للمعلومات التاريخية عن حال العرب في تلك الفترة وعن استعدادهم للانخداع للغرب والعمل ضد

إخوانهم في الإسلام والعروبة والوطن الممتد ، وليس أدل على هذا من أن وقائع هذا الفيلم كانت ماثلة بقوة في ذاكرة معظم الغربيين الذين ناقشوا معي طيلة الفترة الماضية أزمة حصار قطر ومقدماتها وجذورها وتوقعاتهم لمآلاتها في المستقبل ، بل إنهم كانوا يشخصون كل تطور في القضية بالقياس على ما قدمه الفيلم من صورة ذهنية ظلت وستظل راسخة في الأذهان. وقد أجاد الفيلم تقديم صورة العرب في وقائع وأحداث تلك الفترة ، وهي صورة مشبعة بروح القبالية ، ومرتعة بروح التفروق والحرص المستमित على النزاع والقتال لأوهى الأسباب.

الإبهار

ومن ناحية فنية بحتة ، فقد بلغ هذا الفيلم ذروة في التصوير السينمائي المبهر والمكلف ، وهو تصوير لايزال يتمتع المشاهدين و يسعدهم بالصورة الفاتكة الجمال للصحراء العربية بلون رمالها وانعكاسات الضوء عليه ، فضلا عن الطبيعة البكر النقية ، والحياة البدوية المنفردة . ومن الجدير بالذكر أيضا ، أنه على المستوى الفني العالمي ، فاز ذلك الفيلم العالمي بالعديد من الجوائز ونال استحسان المشاهدين منذ بدء عرضه وحتى الآن، وعلى سبيل المثال فإن الفيلم نال جائزة الأوسكار لأفضل فيلم ، ولأفضل مخرج ، ولأفضل تحرير ولأفضل موسيقى تصويرية . واعتبر لورنس العرب في رأي كثيرين من المشاهدين و المتخصصين بمثابة الفيلم الأعظم في تاريخ السينما الأمريكية، ومن هؤلاء المخرج الأمريكي مارتين سكورسيزي ، وهو المعروف بلقب مخرج الروائع وصانع النجوم ، وقد اعتبر الفيلم ملهما له في كثير من أعماله. وحين أعلن معهد الفيلم الأمريكي قائمته لأفضل مئة فيلم أمريكي في القرن العشرين (كان هذا في عام ١٩٩٨)، جاء ترتيب فيلم لورنس العرب في المركز الخامس ولم تسبقه إلا أربعة أفلام يعرفها المشاهدون جيدا : المواطن كين، وكزابلانكا، والعراب، وذهب مع الريح.

صورة العرب الذهنية الشائعة

ولعل هذا النجاح الذي لاقاه هذا الفيلم ، والذي أفضت في الحديث عنه عن عمد يجذب أنصار الساسة العرب الشبان بما فيه الكفاية والعناية إلى حقيقة صورتهم الذهنية الشائعة في الذهنية العالمية و المشجعة لبعض قيادات الغرب المتربصة لالتهامهم والمتلمظة بهم والقادرة على هذا بسهولة.

الفصل الثاني عشر إسرائيل في أسوأ أحوالها لكن العرب لا يتصورون

تأجج العداوة الشعبية

لن أدخل في مقدمات طويلة يعرفها القراء بأفضل مني ، لكني سأدخل مباشرة إلى الطرح الذي أقدمه من خلال محاور واضحة. أبدأ فأسأل أي إسرائيلي أو مصري أو مراقب للأحوال ، هل تشعر إسرائيل الآن بالأمان من ناحية الجبهة المصرية على النحو أو بالقدر الذي كانت تشعر به في نهاية عصر الرئيس مبارك حين كان التنسيق الأمني قد وصل إلى مدى متقدم وواضح وصريح، وكانت الأمور تسير في تودة وروتين هادئ لا يعكر صفوها شعار ولا شجار؟ الإجابة لا، فإن إسرائيل رغم كل ما تسمعه من حديث الانقلاب المصري عن السلام الدافئ، ورغم كل مظاهر طاعته وطواعيته لها، بل رغم كل ما تقدمه لهذا النظام من العون على المستوى الدولي والإقليمي والإفريقي وفي ملفات الاقتصاد والأمن وحقوق الإنسان، وما تدعم به علاقته ومكانته في الولايات المتحدة والغرب الأوروبي كله..

رغم هذا كله فإن هذا النظام الانقلابي المصري عاجز عن أن يقدم لإسرائيل طمأنينة حقيقية أو أن يوحى لها بالأمن المستقر ، وفي مقابل هذا ، فقد عادت العداوة الشعبية المصرية إلى التأجج إلى درجة لا تقل عن ذات الدرجة التي كانت موجودة فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، حيث كان الشعب المصري يُحس أن وجوده ووجود إسرائيل لا يجتمعان ، ولا يمكن أن يجتمعا ، ومن الملاحظ أن أحد أسباب هذا التأجج قد تمثل في التصريحات الإسرائيلية المراهقة و تغريدات الكوادر الإسرائيلية المستحدثة في مواقع التواصل الاجتماعي التي أسهمت في إحياء كل مخاوف المصريين واستعداد كل غرائزهم ومخاوفهم واستنكار كل آلامهم وشكوكهم.

الاستعداد بالاستعداد

لم يكن الحال على هذا النحو في ٢٠٠٩ أو ٢٠١٠ ، لكنه أصبح الآن أمرا واقعا يتواكب مع مظاهر التبعية المفرطة التي يُظهرها النظام الانقلابي دون مقابل ودون مردود حقيقي في المستوى الجماهيري، وعلى سبيل المثال فإن موضوع بيع الجزيرتين أعاد ذكرى الشهداء وذكرى الحروب وذكرى الصراع وذكرى الاغتصاب وذكرى المجازر و بحر البقر ودفن الجنود المصريين أحياء. وعلى سبيل المثال أيضا ، فإن فخر إسرائيل بأشرف مروان أعاد التذكير بضرورة الثأر.

وعلى سبيل المثال ثالثاً فإن نعمة التفوق التي لا تفتأ الصحافة الإسرائيلية ترددها كانت تستدعي الاستعداد الكلي من حيث أرادت مجرد استدعاء التاريخ فحسب..، وهكذا أصبحنا نعرف ما نسميه الاستعداد بالاستعداد.

أما مواقف إسرائيل من غزة ومن المسجد الأقصى ، فكانت كفيلاً بأن تجعل المؤمنين بالسلام يخفون إيمانهم لأنه أصبح بمثابة دافع للسخرية منهم ومن سذاجتهم حين يظنون إسرائيل تشارك فيه ، بينما هي تقتل العزل والأطفال وتعتدي على المقدسات الإسلامية الصميمة بدون أي مبرر.

الحرب الأهلية

أنطلق من مصر إلى الجبهة التقليدية الثانية في سوريا ، فأجد إسرائيل قد ورطت نفسها عن قصد أو من غير إدراك كامل في التصوير الأخطر لطبيعتها ، وهي أنها قوة غاشمة مغتصبة تطلب من العالم أو المجتمع الدولي أن يتورط معها في الاغتصاب بدون أدنى فائدة لهذا المجتمع ، ولك أن تقرأ مشاعر أي ديبلوماسي أو سياسي غربي اشترك في المفاوضات أو المؤتمرات حول سوريا ، حيث يجد إسرائيل تقحم نفسها على قضايا الأمن في بلد مضطرب بثورة شعبية وحرب أهلية يشنها النظام الأسدي على أبناء شعبه ، فإذا بإسرائيل التي تؤمن نفسها كما تقول بوجودها في الجولان منذ خمسين عاماً تطلب من العالم أن "يؤمن" لها هذا "التأمين" الشاذ ، بينما أهل البلد الأصليون يفتقدون الأمان من حكومتهم التي شنت عليهم الحرب ..

وتفرض إسرائيل على روسيا وإيران وتركيا وأمريكا و أوروبا واقعا إضافيا لا مبرر له من أجل أن تستقوي بهذه الدول على نظام يستند في وجوده إلى إيران أو إلى روسيا ، ومن دونهما فلا وجود له. ثم إن الصورة العامة أبانت للجماهير المتابعة ما كنت أقوله (ولا يتصور العرب صوابه) من أن نظام الأسد يعمل لتأمين إسرائيل قبل أي هدف آخر.

الشعارات الزائفة أجدى من التزلف

وهنا أصبح الفهم الدولي لقضية سوريا مرتبطاً لأول مرة بحقيقة مرّة ، وهي أن الأزمة السورية (ومن قبلها الأزمة اللبنانية) ليست إلا نتيجة مباشرة لوجود إسرائيل ، حتى وإن بدت في ظاهرها غير ذلك ، وهكذا تدرجت إلى ساحة التفكير الاستراتيجي حقيقة من الحقائق التي ظلت مخفية تماماً طيلة سبعين عاماً أي منذ ١٩٤٨ ، كما ظلت مستورة جزئياً طيلة خمسين عاماً أي منذ ١٩٦٧ ، ولم تنكشف حقيقة إسرائيل وحدها ، بل انكشفت معها حقيقة كيانات لبنانية وسورية وفلسطينية صورت نفسها في معسكر الثورة ، فإذا هي من معسكر العدو الإسرائيلي نفسه..

ومع السماع المتكرر لقعقة السلاح ، فقد توارت جعجة الإيديولوجيا لتخفي الشعارات البراقة وتظهر الحقيقة مرة.. ومن الجدير بالذكر والتأمل أن سياسات قيادات العصر الذي شهد موجة الشعارات البراقة كانت تخدم إسرائيل بأكثر من هذا التزلف الذي تقدمه قيادات سياسية في وقتنا الراهن.

أهداف لا تمثل النجاح

أنطلق من الجبهتين المصرية والسورية إلى حالة السعودية كنموذج لحالة ما كان يسمى بدول الطوق الثاني ، فإذا بنا أمام حالة من حالات التزلف العربي الهادف إلى تحسين علاقاته الأمريكية ليس إلا، فلم يكن المراقبون السياسيون ينظرون إلى السعودية في ماضيها القريب على أنها معنية عناية حقيقية ولا جادة بالصراع العربي الإسرائيلي إلا بالقدر الذي يحفظ لها ماء الوجه ولا يحيلها إلى قوة معادية للحقوق العربية أو قوة مفرطة في الحقوق الإسلامية.. وإذا بها منذ عامين تبدأ في الجهر بأنها تبحث عن مصالحها مع إسرائيل ، مع أن هذه المصالح لا تتعدى استغلال إظهار الود في تليين وتوثيق علاقات السعودية بجماعات الضغط (أو اللوبيات) اليهودية في المجتمعات الأمريكية ، وهي علاقة استراتيجية قديمة لم تكن في حاجة أبداً إلى مثل هذا الدعم أو التليين . ومع هذا فإن التاريخ الإنساني علمنا أنه يعرف نوعاً من أنواع الإغراء بسعادة وهمية يجري وراءها ساسة مراهقون لا يؤمنون إلا بالمتع الحسية ، ثم إنهم في ظل افتقارهم للثقافة وروح الحياة الإنسانية سرعان ما يدورون حول أنفسهم من أجل تحقيق أهداف لا تمثل لهم نجاحاً ، لكنهم ينشغلون بها حتى تكاد تقتلهم في بعض الأحيان.

ما بين الاحتضان والاحتقان

و على هذا النحو فقد كان ذلك الطراز من الإقبال السعودي الراهن على إسرائيل إقبالا مكشوفاً ومفضوحاً، ولو أن القيادة الإسرائيلية كانت أكثر رسوخاً في عالم السياسة ، ما كانت قد اندفعت إلى إبداء السعادة بهذا الإقبال المفضوح ، لكنها ظنت أن هذا الإقبال يُحسب لها ، مع أنها لم تبذل في تحقيقه جهداً ذا بال.. لكنها لم تجد مانعاً في الاحتفال بالتفوق في الحظ وأصبح وضعها في هذه الحالة شبيهاً بوضع ذلك الرجل الذي كتب سيرته الذاتية فأدرج في وظائفه أنه فاز بيناصيب الجائزة الكبرى التي تمنحها مؤسسة رعاية المكفوفين ، مع أن الفوز باليانصيب ليس مؤهلاً وليس وظيفة وليس سابق خبرة ، لكن رئيس الوزراء الإسرائيلي بطبعه المحب للاحتفاليات و الحرص على نسبة أي نجاح لنفسه صور خطوات الإقبال السعودي على إسرائيل على أنها خطوات واثقة في طريق الاستجابة الطبيعية لسياساته الذكية ، مع أن الأمر في حقيقته المجردة من البروباجندا أبعد

ما يكون عن هذا التصور. و قل مثل هذا عن الاحتضان الإماراتي لإسرائيل والاحتضان الإسرائيلي للإمارات وهو احتضان مذهري يجلب في كل خطوة من خطواته مزيدا من الاحتقان في فهم العرب العاديين لمستقبل عملية السلام حتى يصل إلى جعل هذا المستقبل أبعد ما يكون عن القبول أو الفهم.

الظواهر المتناقضة

ثم إننا نجد بعد هذا كله كثيرا من الظواهر المتناقضة في واقعها وتصوراتها مما لن نتطرق إليه بحكم المساحة المحدودة، وعلى سبيل الاختصار ، فإننا نجد القيادة الإسرائيلية تتحدث عن سعادتها بصدقة وثقة الحكومات العربية ، بينما كان الكيان الإسرائيلي قد قدم نفسه للعالم طيلة سبعين عاما على أنه مجتمع تقدمي ، فإذا به حسب تعبيرات ولهجة رئيس الوزراء الإسرائيلي الحالي قد أصبح مجتمعا رجعيا ومضادا للتقدم..

ومع أن الفكر اليساري كان يتوقع أو يقول بأن مجتمع إسرائيل التقدمي يميل إلى الترحيب بالثورة التي سوف تضمن له تجديدا للمفاهيم والمساعدة في بناء مستقبل بعيد عن التعصبات والانحيازات المسبقة... الخ ، فإن الحقيقة الراهنة التي لم تكن متوقعة أثبتت نفسها على يد ننتياهو بكل وضوح ، وهي أن إسرائيل تحت قيادته تمثل ركنا مهما في الثورة المضادة الضاربة عرض الحائط بكل القيم الديمقراطية والتحديثية والتقدمية ودولة القانون وحقوق الإنسان، وكأن ننتياهو يبشر دون أن يدري بأن تتحول إسرائيل خلال سنوات قليلة إلى نموذج شبيه بالإمارات العربية المتحدة .. أو حتى بالمملكة العربية السعودية في وضعها الراهن ، حيث الثورة المضادة هي الأساس وحيث ثورة الإنسان من أجل التقدم ومن أجل الإنسان هي العمل المجرّم الذي تحاربه الدولة ، وكأن ننتياهو ينقض في هدوء ودأب شديدين كل مقومات التماسك الاجتماعي والفكري في إسرائيل ساحبا المجتمع الإسرائيلي إلى مجتمع يتميز بالوفرة الجاهزة والتقدم التكنولوجي المذهري مع حصرية السلطة وقسوتها المتمثل في الإمارات. وهو أسوأ خيار واجه إسرائيل في تاريخها القصير الذي يبدو أنه يسير إلى نهايته بفضل الغلو في الغلو على نحو ما قلت و كررت في عدد من الأوقات .

الباب الخامس إعادة تشكيل الهويات

الفصل الثالث عشر الاستهداء بألساق الوحدة الأوروبية؟

مع أن مجلس التعاون الخليجي كان تجربة مثالية الأهداف ، فإن الخبرة أثبتت أن بنيته الفكرية لم تستطع تلبية الحاجة إلى الاختلاف والتعدد على نحو ما كانت تلي الدعوة إلى الحشد والتعبئة، وربما يتمثل حل هذه الإشكالية الأكثر توفيقا في الالتفات إلى الدراسة المتأنية لأفاق التجربة الأوروبية في الاتحادات المتعددة الأشكال والأهداف والتاريخ والنتائج .

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الآن ، سجل التاريخ المعاصر سبع روابط كبرى لتوحيد أوروبا أو لانتظامها في شبه مسبحة واحدة ، أربع من هذه الروابط تقتصر على دول أوروبا فقط ، وثلاث أخرى تضم دولاً قليلة من خارجها .

و سنناقش في هذا الفصل بطريقة عملية سريعة لا تخلو من التنبيهات التاريخية المفيدة ما ترتب على عضوية هذه الكيانات من الفروق المنشئة للتمييز بين دول أوروبا وبعضها البعض . وربما كان من المهم أن نعترف بأننا في حاجة إلى إشارة سريعة إلى كل كيان من هذه الكيانات وطبيعة العضوية فيه .

منظمة الأمن والتعاون الاقتصادي في أوروبا

أوسع هذه الكيانات عضوية : منظمة الأمن والتعاون الاقتصادي في أوروبا : تأسست في أغسطس ١٩٧٥ وتضم الآن ٥٧ عضواً منها ٤٨ من الدول الأوروبية الخمسين (ولا تقتصر إلى عضويتها إلا موناكو وكوسوفا فقط)، وبالإضافة إلى الدول الأوروبية ، فإنها تضم تسع دول : هي أمريكا وكندا شريكنا أوروبا في حلف الأطنطي ودولة إفريقية وحيدة هي المغرب و٥ دول آسيوية هي الجمهوريات الإسلامية التي كانت سوفيتية ودولة آسيوية سادسة هي منغوليا . ويمكن القول بأن هذه المنظمة تجمع دول حلفي الناتو و وارسو معا .

حلف شمال الأطنطي

أما الناتو وهو حلف شمال الأطنطي [ومقره في بروكسل] فلا يضم من خارج أوروبا إلا أمريكا وكندا، وقد تأسس من ١٠ دول في ٤ إبريل ١٩٤٩ وأصبح الآن يضم ٢٩ دولة منها ٢٧ أوروبية.

مجلس أوروبا

يمثل مجلس أوروبا الذي يتخذ من ستراسبورج مقرا ، كيانا مختلفا عن البرلمان الأوروبي (يتخذ من ستراسبورج أيضا مقرا) الذي أصبح أكثر شهرة ، وقد تأسس المجلس من ١٠ دول في ٥ مايو ١٩٤٩ ، أي بعد تأسيس الناتو بشهر وكانت ٨ من الدول المؤسسة له قد اشتركت في تأسيس حلف الناتو ، وهو يضم الآن ٤٧ من الخمسين إذ لا تحظى بعضويته روسيا البيضاء ولا الفاتيكان ولا كوسوفو بينما تحظى موناكو بعضويته

منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية

تأسست منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية [باريس] في ١٩٦١ عن الكيان الذي نشأ مواكبا لمشروع مارشال ، وكانت الدول المؤسسة له ٢٠ دولة، ١٨ منها أوروبية أما الاثنان فهما أمريكا وكندا ،وقد تطورت عضوية هذه المنظمة بضم أعضاء أوروبيين وغير أوروبيين حتى وصل الى ٣٥ عضوا ، منهم ٩ أعضاء غير أوروبيين: المؤسساتان، وسبع دول قبلت تباعا هي اليابان ١٩٦٤ وأستراليا ١٩٧١ ونيوزلندا ١٩٧٣ والمكسيك ١٩٧٤ وكوريا الجنوبية ١٩٩٦ وإسرائيل ٢٠١٠ وشيلي ٢٠١٠

الاتحاد الأوروبي

هو نفسه الكيان الذي عرف لوقت طويل باسم السوق الأوروبية المشتركة [بروكسل] فتأسس في ١٩٥٧ من ست دول وتطور حتى أصبح الاتحاد الأوروبي الذي يضم الآن ٢٨ دولة أوروبية ، وقد لخصنا قصته في كتابنا "حياتي في ألمانيا"

الشنجن

أما الرابطة الأكثر شهرة بسبب السياحة ، وهي رابطة الشنجن فتضم الآن ٢٦ دولة بطريقة رسمية (لكنها بحكم وقوع ثلاث من الدول داخل حدودها تصبح ٢٩ بطريقة عملية) . وهي تضم ٢٢ دولة من أعضاء الاتحاد الأوروبي وأربعا تجتمع مع بعضها فيما يسمى برابطة الإفتا أو التجارة الحرة التي تعرف نفسها صراحة بما يعني أنها أخت الاتحاد الأوروبي.

اليورو

الرابطة الأكثر تعبيراً عن نفسها في الحياة اليومية للأوروبيين والزائرين هي عملة اليورو الذي تم الاتفاق عليه بدءاً من ١٩٨٥ ثم الأخذ به حسابياً ثم تفعيله في سوق التعاملات مع مطلع ٢٠٠٢.

العضويات السبع

من المفترض نظرياً أن تكون كل دولة أوروبية تتمتع بهذه العضويات السبع ، لكن الواقع أن هذا لا يزال بعيداً ، وإذا اعتبرنا نظام النقاط بمثابة تعبير عن حظوظ الدول الأوروبية من هذه العضويات فإننا نستطيع أن نرتب هذه الدول في مجموعات تبدأ بأعلىها وهي الحائزة لسبع نقاط ٢٦٪ فقط وتنتهي إلى أقلها الحائزة على نقطة واحدة فقط.

المجموعة الأولى ١٣ دولة (٢٦٪) تتمتع بالعضويات السبع كلها

وهذه الدول من ثلاث طبقات تاريخية

- الطبقة الأولى : الدول الست المؤسسة للاتحاد الأوروبي حين كان هو السوق الأوروبية المشتركة : ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج .
- الطبقة الثانية تضم ثلاث دول جنوب أوروبية ، قديمة في السوق الأوروبية ، لكنها ليست مؤسسة ، وإنما تحوز ترتيب العاشر والحادي عشر والحادي عشر مكرر في أقدمية هذه العضوية ، وهي اليونان وإسبانيا والبرتغال.
- الطبقة الثالثة اربع دول من شرق أوروبا انضمت للاتحاد الأوروبي في ٢٠٠٤ (ضمن عشر دول) ، وتحتل كل منها ترتيب السادس عشر (مكرر) في ترتيب عضوية الاتحاد الأوروبي ، الدول وهما دولتان من دول البلطيق التي كانت ضمن الاتحاد السوفييتي وهي إستونيا ولاتفيا و الدولتان السلافيتان أو السلوفيتان (وليسنا السلفيتين) سلوفينيا وهي إحدى الدول السبع الناشئة من تفكك الاتحاد اليوجسلافي ، وسلوفاكيا ، وهي واحدة من الدولتين التي انقسمت إليهما تشيكوسلوفاكيا.

المجموعة الثانية ٧ دول (١٤٪) تحقق ست عضويات

وتنقصها عضوية واحدة أياً ما كانت هذه العضوية الناقصة (الشنجن أو اليورو أو منظمة التعاون الاقتصادي) ، لكن الملاحظ أن أصحاب النقاط الخمس يجمعون عضوية الاتحاد الأوروبي و الناتو والمجلس و منظمة الأمن بلا استثناء :

- دولتان في الاتحاد الأوروبي تتمتعان بست عضويات ، لكنهما ليستا عضويتين في حلف شمال الأطلسي؛ وهما : النمسا ، وفنلندا التي صورت رمزا من رموز الحيايد بأسلوب مختلف عن أسلوب الحيايد السويسري ، وقد انعقدت فيها ثلاث قمم بين الرئيسين الأمريكي والسوفييتي مع اختلاف الرؤساء ، و بهذا فإن فنلندا هي أكثر الدول الإسكندنافية اندماجا في الاتحاد الأوروبي شأنها شأن الدنمرك (مع اختلاف طبيعة النقاط).
- أربع دول أوروبية تتمتع بست عضويات ، لكنها لا تستخدم اليورو حتى الآن وهي الدانمرك التي كانت سابغ الدول المؤسسة للسوق الأوروبية المشتركة ، كما أنها من المؤسسات لحلف الناتو ، و بهذا فإن الدنمرك هي أكثر الدول الإسكندنافية اندماجا في الاتحاد الأوروبي بخمس نقاط شأنها شأن فنلندا ، و يشترك مع الدنمرك في هذا الوضع المميز ثلاث من الدول الشرقية السابقة حديثة الانضمام لكل من الاتحاد الأوروبي (في ٢٠٠٤) وحلف الناتو (مارس ١٩٩٩): بولندا و التشيك والمجر.
- دولة تتمتع بست عضويات ، لكنها ليست عضوا في منظمة التعاون الاقتصادي وهي ليتوانيا .

المجموعة الثالثة ٦ دول (١٢٪) ، تحقق خمس عضويات

- من العضويات السبع وتنقصها عضويتان
- دولتان تتمتعان بخمس عضويات ، لكنهما ليستا عضويتين في الاتحاد الأوروبي ولا اليورو وهما دولتان إسكندنافيتان : أيسلندا والنرويج ، وإن اعتبرت أيسلندا أوثق صلة بالاتحاد الأوروبي ، لأنها من الدول المرشحة للانضمام للاتحاد.
- دولة تتمتع بخمس عضويات ، لكنها ليست عضوا في اليورو ولا في حلف الأطلسي وهي السويد.
- دولة تتمتع بخمس عضويات لكنها لا تستخدم اليورو ولا الشنجن وهي : بريطانيا التي هي من الدول المؤسسة للحلف كما أنها ثامن دولة في تاريخ السوق الأوروبية المشتركة .
- دولة تتمتع بخمس عضويات ، لكنها ليست عضوا في حلف الأطلسي ولا الشنجن وهي جمهورية إيرلندا.
- دولة تتمتع بخمس عضويات لكنها ليست عضوا في حلف شمال الأطلسي ولا في منظمة التعاون الاقتصادي ؛ وهي مالطة.

المجموعة الرابعة ٨ دول (١٦٪) ، تحقق أربع عضويات

- من العضويات السبع ، و تنقصها ثلاث عضويات
- دولة تتمتع بأربع عضويات في الناتو والمجلس ومنظمة التعاون الاقتصادي ومنظمة الأمن ومرشحة للانضمام الى الاتحاد الأوروبي لكنها لم تصبح عضوة فيه ولا تستخدم الشنجن ولا اليورو وهي تركيا.
 - دولة هي أحدث أعضاء الناتو وعضو في المجلس و منظمة الأمن كما أنها تستخدم اليورو بطريقة غير رسمية ومرشحة للانضمام للاتحاد الأوروبي بينما هي ليست عضوا في منظمة التعاون الاقتصادي ولا الشنجن ، و هي الجبل الأسود.
 - دولة تتمتع بأربع عضويات لكنها لا تستخدم اليورو كما انهما ليست عضوا في الاتحاد الأوروبي ولا حلف الناتو وهي : سويسرا
 - دولة تتمتع بأربع عضويات لكنها ليست في حلف الأطلسي ولا منظمة التعاون الاقتصادي ولا الشنجن : وهي قبرص.
 - دولة عضو في المجلس ومنظمة الأمن فقط وتستخدم اليورو بصفة رسمية و الشنجن بما يسمى حكم الأمر الواقع : سان مارينو.
 - ثلاث دول شرقية تتمتع بأربع عضويات لكنها لا تتمتع بعضويات منظمة التعاون الاقتصادي ولا اليورو ولا الشنجن ، اثنتان منهما كانتا عضويتين في حلف وارسو وهما رومانيا وبلغاريا أما الثالثة فكانت جزءا من الاتحاد اليوغسلافي وأصبحت عضوة في حلف الناتو في ٢٠٠٩ وهي آخر أعضاء الاتحاد الأوروبي انضماما بترتيب الثامنة والعشرين ، وهي كرواتيا.

المجموعة الخامسة ٥ دول (تمثل ١٠٪) تتمتع بثلاث عضويات

- دولة تتمتع بعضوية حلف الناتو والمجلس ومنظمة الأمن ومرشحة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي وهي ألبانيا.
- دولة تتمتع بعضوية حلف الناتو والمجلس ومنظمة الأمن وهي ليختنشتاين. وهنا ينبغي لنا أن نشير إلى أن ليختنشتاين ليست دولة في داخل محيط دولة أخرى ، وإنما هي ذات حدود مع دولتين هما النمسا وسويسرا .
- دولة عضو في المجلس ومنظمة الأمن و تستخدم اليورو بطريقة ودية أو غير رسمية ، وهي أندورا (ذات حدود مع دولتين هما فرنسا وإسبانيا).

- دولة عضوة في منظمة الأمن فقط و تستخدم اليورو بصفة رسمية كما تستخدم الشنجن بما يسمى حكم الأمر الواقع: الفاتيكان .
- دولة عضو في المجلس فقط وتستخدم اليورو بصفة رسمية كما تستخدم الشنجن بما يسمى حكم الأمر الواقع: موناكو.

المجموعة السادسة ٩ دول (١٨٪) وهي الدول ذات النقطتين

- دولتان عضوتان في المجلس ومنظمة الأمن وليستا في الاتحاد الأوروبي ولا الناتو ولا منظمة التعاون الاقتصادي ولا الشنجن ولا اليورو ، لكنهما مرشحتان للاتحاد ، وهما صربيا و مقدونيا.
- سبع دول أوروبية أعضاء في المجلس و منظمة الأمن لكنها لا تتمتع بعضوية الاتحاد الأوروبي ولا الناتو ولا الشنجن ولا اليورو، ولا هي مرشحة وهذه الدول هي: روسيا وأوكرانيا وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا ومولدافيا والبوسنة.

المجموعة السابعة دولتان (٤٪) ذات نقطة واحدة أو أقل :

- دولة في منظمة الأمن فقط لكنها لا تتمتع بعضوية الاتحاد الأوروبي ولا حلف الناتو ولا الشنجن ولا اليورو، و هي روسيا البيضاء.
- دولة ليست عضوا حتى الآن في الاتحاد الأوروبي ولا المجلس ولا حلف الناتو ولا منظمة الأمن ولا منظمة التعاون الاقتصادي ولا الشنجن، لكنها تستخدم اليورو بطريقة غير رسمية وهي : كوسوفو

الفصل الرابع عشر الثورات العربية المضادة والخروج البريطاني

التقديم الجذاب

كان العداء الصريح للحركات الإسلامية من الخصائص والسمات الجوهرية التي استندت عليها مجموعة الثورات المضادة للربيع العربي في تقديمها اللوح لنفسها في المجتمعات الأوروبية فيما خلف الأبواب المغلقة .

وقد وصلت هذه الثورات المضادة في هذا السبيل إلى نقاط خطيرة علي مستقبلها هي نفسها ، فقد أعلنت ممارساتها بوضوح أنها من أجل بقائها في السلطة لا تجد أي مانع في أن تخاصم الذات وأن تنفي الهوية بكل وسيلة ممكنة ، بما في ذلك التصفية الجسدية للجموع البشرية وليس للأفراد فحسب .

ومع أن خبراء السياسة الأوربيين بحكم ثقافتهم كانوا يعلمون أن هذا التوجه محكوم عليه بالفشل المؤكد ، لأنه ضد طبائع الأشياء فإنهم لم يجدوا غضاضة في أن يشيروا على أصحاب القرار في دولهم بأنه ليس هناك ما يمنع الحكومات الأوروبية من أن تستفيد مرحليا من بعض الفرص المالية السانحة المرتبطة بمثل هذه الموجة العابرة (أو المؤقتة) من التوجه الحاكم لهذه الثورات العربية المضادة .

لكن هذا التوجه نفسه كان حريصا على أن يتم هذا الانتفاع في إطار مخاتل بما لا يبدو تخليا تاما أو نهائيا عن القيم الإنسانية و الأوروبية ، وذلك من قبيل الاستجابة للتودد العربي المفاجئ المعبر عن نفسه في طلبات توريد السلاح بكل ما يؤمنه هذا التوريد من توفير السيولة وزيادة الوظائف وفرص العمل ، و تصريف الراكد ، وتجديد المصانع ... الخ ، وذلك مع الحرص الذكي على الإبقاء على مثل هذه السياسات البرجماتية في حدود خلقية آمنة .

التصوير

كانت الأمور تمضي في سبل كفيلة بأن تصور الصفقات على أنها تعاون عسكري محوري لا يرتقي إلى درجة التحالف السياسي ، وأن التعاون العسكري يستهدف الإرهاب لا القمع ، وأنه يحقق الأمن الأوربي بطريقة أو أخرى وكلها كما هو معروف دعاوى سهلة الإثبات أو الترويج إعلاميا .

في هذا السياق حدثت نقطة تاريخية بارزة مثلت تاريخا مفصليا لم يتخيل أحد حدوثه على هذا النحو الصارخ ، وذلك حين أسفرت نتائج لقاء وزيرى خارجية السعودية والإمارات برئيس إحدى الدول الأوربية البارزة عن إعلان النجاح الصريح بل و المدوي لهذه السياسة ، وبخاصة أن الموقف الديبلوماسي تجاه الاعتراف بالانقلاب العسكري المصري تغير ١٨٠ درجة عقب هذا اللقاء مباشرة .

بدء التورط ثم التطور فيه

لكن هذا النجاح الظاهري جلب نوعا من أنواع السخط الأوربي المبطن و المبرر فيما يتعلق بالضجر من تزايد سطوة المال العربي على القرار السياسي الأوربي ، حتى لو كانت النتيجة تصب في مصلحة أمنيات مكبوتة ضد كل حركات الإسلام السياسي ، وفي صالح ما روجت له سياسات الإسلاموفوبيا.

وسرعان ما تحولت كثير من تلك الهمهمات الأوربية إلى علامات استفهام كبيرة عن حدود وقيود (أو ضوابط) التورط الأوربي القادم في المنطقة العربية (في ليبيا على سبيل المثال) . وقد لاحظ المراقبون أن كل تورط من هذه التورطات كان قابلا لما هو طبيعي من التطورات ، وأن هذا التورط المتكرر قد زادت فرصه مع تنامي ظاهرتي الانكماش الأمريكي المبرر والافتحام الروسي المُرمر أو المسموح به ، وما استتبعته هاتان الظاهرتان من حتمية زيادة التورط أو الوجود الأوربي.

ومن المذهل أن الروح الديماجوجية سيطرت على الأحداث بأكثر مما بدا من أن البرجماتية ستكون هي سيد الموقف ، وبخاصة بعد ذلك التحول الذي كرسه الصفقة التي عقدها وزيرا خارجية الدولتين المفرطتين في الثراء ، فضلا عن استمرار دورهما الركين في الإنفاق السخى والمتواصل على الثورات المضادة.

الديماجوجية تنتصر على البرجماتية

ربما يدهش القارئ إذا علم أن الديماجوجية قد قدمت نفسها على أنها طراز متقدم من البرجماتية العصرية ، وعلى سبيل المثال فإن الخروج البريطاني نفسه كان مثلا بارزا لهذا الانتصار الديماجوجي على النهج البرجماتي ، وقد حدث هذا الانتصار في معقل الحكمة السياسية الأوربية نفسها ، أي في المملكة المتحدة .

وإذا ببريطانيا العظمى نفسها ، وقد ورطت نفسها في إيذاء نفسها من دون أن تشعر ، حتى وجدت نفسها فجأة تخاصم تاريخها وإنجازاتها واقتصادها وتندفع إلى موجة من موجات التحفظ على الاتحاد الأوربي في ظل مناخ مفاجئ بالمشحونية السيكولوجية .

وقد بدا الرأي العام البريطاني وكأنه قد تأثر لتوه بمردودات تعبيرات غير دبلوماسية كانت في الأصل ردودا فردية عابرة تختلف في جزيئة ما مع الدبلوماسية التركية الساعية للانضمام إلى الاتحاد الأوربي ، و تم دعم هذه التعبئة بالمناخ العام المشحون بما توفر له من خوف مشروع من موجات هجرة عربية نتيجة عنف الانقلاب المصري و دمويته و تداعيات البطش الحكومي السوري بالثورة السورية.

و في ظل حرص بريطاني مفهوم عن النأي بالنفس عن أن تكون طرفا في صراعات تميل موازين القوة فيها لأطراف غير ديموقراطية ، فإنه لم يكن أحد بغافل عن السبب العميق في تصاعد هذا التوجه البريطاني المفاجئ ضد البقاء في الاتحاد الأوربي (وهو ما عرف اختصارا بمصطلح البريكست) ، وهو أن البريطانيين كانوا (كما يعلم الجميع وكما لاتزال الصورة قائمة) يعانون معاناة معلنه وليست مكتومة أو صامتة من المعقبات المزعجة المترتبة على التزامهم بتوفير الإقامة الشرعية في بلادهم لأعداد كبيرة من رعايا أكثر من دولة شيوعية سابقة أصبحت عضوا في الاتحاد الأوربي مع بقاء فقرها وبطالتها ...

وكما أشرنا لتونا ، فلم تكن معاناة الشارع البريطاني سرا ولا أمرا مكتوما وإنما كانت الشكوى المنكررة منها ناطقة ومطروحة على بساط البحث ، فلما حدث الانقلاب العسكري المصري وما واكبه من تحول دفة المعارك في سوريا لمصحة نظام بشار الأسد ومن ثم زيادة أعداد النازحين واللاجئين والهاربين من المأساة السورية صورّ الإعلام الخادم للمصالح الصهيونية للبريطانيين أن سياسة الاتحاد الأوربي ستجبرهم على قبول ملايين من مصر وسوريا واليمن وليبيا بحكم ما عرف عن السياسة البريطانية من التزام كبير بحقوق الإنسان ، ومن ثم فإن مصلحتهم كبريطانيين تتمثل في الخروج السريع من الاتحاد الأوربي قبل أن تجبرهم قوانين الاتحاد أو سياساته على حصة كبيرة من المهاجرين الذي سيصلون إلى سواحل أوربا الجنوبية.

الطوفان

كانت البروباجندا العالمية تعمل بكل وسيلة على تقوية الخوف من هذا الهاجس الذي لم يكن يفتقد ما يدعمه من ظواهر مادية على وجه الأرض ، و لم تكن الفضائيات تبخل بتكرار التخويف من طوفان المظلومين القادم ، و بخاصة مع الموقف المراوغ الذي بدأت أمريكا تعزفه مرة بعد

أخرى معتمدة على ما سبق لبريطانيا نفسها أن قررته من خلال برلمانها بعدم الموافقة على المشاركة العسكرية في تأديب بشار الأسد عما عرف من ارتكابه للمذابح الكيماوية البشعة. وجاءت حمى الحديث عن زيادة معدلات الهجرة الهاربة من جحيم الثورات المضادة في الشرق الأوسط لتؤجج هواجس البريطانيين الذين قدر لهم أن يعانون مما كانت تستهدفهم به الميليشيات الإعلامية والدبلوماسية الممولة من الدولتين العربيتين فاحشتي الثراء .

الدعوى السفيهة

وقد تبلورت دعوى هذه الميليشيات في اتهامات مضحكة و سفهية لبريطانيا بأنها من خلال حمايتها لحقوق الإنسان تدعم الإرهاب الإسلامي . وبلغ الأمر في هذه الحملة حدودا تعدت الافتراء والتلفيق إلى اختلاق مقولات ونسبتها إلى مسئولين بريطانيين ، وذلك من قبيل ما نسبته إعلاميو الثورة المضادة زورا إلى رئيس الوزراء البريطاني من القول بأنه توصل أخيرا إلى عقيدة مفادها أنه لا محل إطلاقا للحديث عن أي حقوق للإنسان إذا ما تعلق الأمر بالأمن القومي البريطاني!!

الهجرة

وزاد في هواجس البريطانيين أن مؤشرات سياسة الاتحاد الأوربي بدأت تدل على استحالة تبني موقف واضح من تطورات قضية الهجرة ، وبينما كانت دولة السويد وحكومتها في قمة حكمتها وإنسانيتها كانت المستشارية الألمانية ميركل مضطربة من الضغوط والدعايات السوداء ، وكان الزعيم المجري يحرض على المسلمين بصراحة جارحة للإنسانية وبدأ الموقف الفرنسي يرتبك ...

و كانت الدولتان العربيتان الممولتان للثورة المضادة تضغطان بكل وسيلة على رئيس الوزارة البريطاني كاميرون للموافقة على بدء سياسات خبيثة إن لم تكن إجرامية تستهدف في النهاية إبادة المسلمين أرضا وبحرا وجوا مع تكفلهم بالقاتورة .

وهكذا اندفعت النفسية البريطانية على حين غفلة من عقلها الواعي لمصالحها إلى الموافقة الشعبية على قرار البريكست الذي جاء كنتيجة مباشرة غير معترف بها ولا بتسببها الحقيقي لأكبر انتصار حققته الثورات المضادة للربيع العربي وهو الانقلاب العسكري المصري في يوليو ٢٠١٣

في أعقاب الاستفتاء بدت الصورة خادعة بعض الشيء وكأن بريطانيا قد نجحت بقرار الخروج في أن تجنب نفسها معاناة قادمة ، وأنها استشعرت الخطر ونجت منه ، وأنها ستعود إلى حالة من تأنق أرسقراطي لا يختلط بقوميات أوربية متعددة، ولا بلغات محلية، ولا بعواصم ريفية ،

ولا باقتصاديات منهكة ، ولا بسياسات مضطربة من قبيل سياسات اليونان التي تعرف الإنفاق
ولا تعترف بالادخار ...

الهجرة العكسية

لكن الحقيقة سرعان ما ظهرت للجميع بارزة الأنبياء الحادة ، فقد اكتشف البريطانيون أن
صورة المشكلات التي دعمت قرار البريكست كانت مبالغاً فيها ؛ وعلى سبيل المثال فإن البيانات
الداعية للخروج من الاتحاد الأوروبي كانت تنقل وتضخم مخاوف المجريين من طغيان تيار
الأسلمة إذا بدأت هجرة العرب المسلمين المعانين من بطش العسكر : على حين أخفى السياسة
المتحمسون أرقام الهجرة العكسية بسبب عودة الأتراك لبلادهم بعد تحسن ظروفها التنموية في
ظل حكم يوصف بالأسلمة ، وهو حكم حزب العدالة والتنمية بقيادة الرئيس رجب طيب أرد
وغان.

واليوم تعود بريطانيا لتواجه الحقيقة مرة أخرى بعد أن انقشع غبار الفضائيات والإسلاموفوبيا
فتكتشف مدى الضرر الذي حاق بها من مجاملاتها المبررة (أو غير المبررة) لدولتي الثورة
المضادة العربيتين .

الفصل الخامس عشر الأردنيون والاستقرار الناضج

العلو والغلو

توالت في الأسابيع الماضية ردود الفعل السياسية تجاه ما ظننته بعض القوى الكبرى (والدائرون في فلکها عن إيمان أو عن طمع) وضعا ممكن القبول بفضل سياسات الغطرسة التي تتخطى حقائق التاريخ والجغرافيا لتخلق أو تستحدث واقعا يستند في وجوده إلى عاملين متآزرين هما قوة السلاح و غرور هذه القوة ؛ بل إن العلو والغلو اللانهائيين قد سولا لأصحاب هذه القوة أن يصادروا على إنسانية وهوية أصحاب الحق الأصلي فيصفونهم بصفات تستوجب بالتبعية تجريهم في الوقت الذي يستحقون فيه كل مظاهر التأييد ؛ ولم يكن هذا النزق المتغطرس في حاجة إلى أن يحظى بتعاون وتأييد أو تصفيق من بعض إخوة المظلومين المتكبرين للأخوة بل وللإنسانية نفسها ، لكن بعض هؤلاء الإخوة ظنوا أن تأييدهم للقوي يعطيهم القوة حتما ، على حين أن وقوفهم مع المظلوم يمهّد لتحويلهم إلى مظلومين ، ولما كانوا بحكم الوراثة والعائلة قد نشأوا على تعشق القوة وحب النفوذ ، فإنهم آثروا بمعادلة سياسية بسيطة أن يكونوا مع الظالمين حتى لا يكونوا من المظلومين.

و قد أوحى لهم هذه المعادلة البسيطة أن مكانهم محصور بين هذا الصف وذاك، ولأنهم لا يتصورون أنفسهم مجاهدين أو متآزمين ، فقد ساروا إلى تبني فكرة الزهو بأنهم أثرياء ظلمة وليسوا وطنيين مكافحين ، وبأنهم يحبون الظلم، وبأنهم يؤيدون الظالم مهما كان ظالما، بل إنهم من باب التوكيد والتجويد بدأوا يصطنعون للمظلوم صفات غريبة ليست فيه كي يبرروا للظالم ظلمه للمظلوم.

فن الممكن وليست فن التبعية

بصرف النظر عن السقوط الأخلاقي الكامن في مثل هذا المسلك المعوج ، فإن التصنيف السياسي له لا يخرج به عن دائرة الفشل السياسي أيضا ، ذلك أن الساسة فن الممكن وليست فن التبعية ، كما أنها فن التفاوض وليست فن الإقرار ، فضلا عن أن السياسة في جوهرها تمثل محاولة دائبة للفوز والتحقق وليست نقطة في نهاية السطر على نحو ما تريد إيماءات وجوه الظالمين أن تقول .

والحق أن الصورة التي ظهرت فيها ردود فعل الشعوب العربية كانت مفاجئة تماما لمعسكر الانحياز لإسرائيل ، فها هي الجماهير المؤمنة بالحق تفتدي وطنها و إرادتها بالروح وبالدم عن يقين وعن إيمان ، وتفعل هذا من دون مساومة أو ترتيب ؛ وها هي المشاعر الصادقة تلطم كل عناصر القوة الظالمة الغاشمة على نحو غير قابل للتأجيل ولا للتبريد ؛ وها هي عقليات عربية من مستويات مختلفة تعبر عن ردود فعل إيجابية لا تتوافق مع ردود الفعل السلبية التي بنت الإمبريالية حساباتها عليها ؛ ومن الإنصاف أن نذكر أن المملكة الأردنية الهاشمية كانت ميدانا من الميادين الرحبة الذي اتسعت للتعبير الحي عن جوهر المشاعر الحقيقية تجاه فلسطين والقدس .

محور الاعتدال

ولم يكن هذا الوضع والحسم في رد الفعل الأردني المقاوم للظلم والرافض للمنطق المساند له غريبا على شعب الأردن الناضج سياسيا وعروبيا ، لكنه مع هذا بدا غير متوقع عند من أقاموا حساباتهم على أن محور الاعتدال (كما يسمونه) سوف يميل إلى العمل المكثف من أجل التوافق مع سطوة صاحب القوة حتى لو كان ظالما ، وسوف يتخلى عن مقاومة الظلم حتى لو لم يكن الظالم قويا .

ومن الجدير بالذكر والفهم هنا ، أن الذين تبنوا هذه الرؤية البراجماتية كانوا أصلا من الذين لم يعرف عنهم طول باع لا في السياسة ولا في الوطنية ولا حتى في الدبلوماسية أو التكنوقراطية وإنما كانوا من طبقة حكام جدد متطلعين بدأوا يعلنون من شأن الصفقات وفكرها ، ويعملون من أجلها بطريقة الصف الثاني من طبقة رجال الأعمال الذين يوظفون العلاقات والمساومات بكل ما هو ممكن في سبيل تحقيق الغايات بأسرع معدل من معدلات التنفيذ الذي لا يلقي بالا لكل ما يحيط بالتنفيذ الصارم من التعدي على المشاعر الإنسانية.

هكذا وبدون تعميق للمقدمات كان معسكر القوة الغاشمة يضطر نفسه في سرعة بالغة إلى اللجوء إلى سياسات المقايضة واسعة النطاق التي تشترط الالتزام بمواقف سياسية تضمن تحقيق الأغراض الصهيونية والإمبريالية ، وإلا فإن سطوة رأس المال كقيلة بإسقاط النظام الذي لا يقبل بالمشاركة في التبعية .

نظرية الاستسلام المريح

على الرغم من أن الطرح السياسي لهذه الفكرة كان يستجلب رفضها أوتوماتيكيا و من دون لجوء إلى قدح الذهن أو عصف الأفكار ، فإن هناك ملادا أمنا (وإن كان شريرا) كان في وسع

الفكرة الجهنمية أن تسلكه من أجل إجبار صاحب القرار على التنازل عن الثوابت والخضوع لتيار الاستسلام المريح.

وقد تمثل هذا الملاذ الشرير فيما تستطيع السلطات المالية الدولية أن تؤثر به على حالة الاستقرار المجتمعي المساندة للاستقرار السياسي الذي تعتمد عليه كل سلطة في قبولها وقدرتها واستمرارها .

ومع أن هذا الفهم الواضح يبدو من الأمور المسلم بفعاليتها ، فقد كان الضمير الإنساني من الوعي الحصيف بحيث أدرك مبكرا أن السلطات المالية لصندوق النقد الدولي تستلزم بصورة قطعية نوعا ما من التنازل الجزئي عن السيادة السياسية للدولة ، أي أن الذين يربطون مقدراتهم الاقتصادية بدعم صندوق النقد الدولي أو إقراضه أو مراقبته يحكمون على أنفسهم بطريقة أو بأخرى بالتنازل عن بعض سيظرتهم القابضة على مجريات السياسات النقدية والمصرفية والضرائبية في بلادهم.

ومن الإنصاف أن نعترف بأنه كانت هناك حدود أمنة في هذا السياق ، لكن الإنصاف نفسه يجعلنا أيضا لا ننكر حقيقة تاريخية مهمة ، وهي أن حالات المخاطر والتذبذب والتقلب بل الانقلاب فاقت في مجموعها أضعاف الحالات الآمنة .

بيد أن خطورة الهيمنة الدولية على اقتصاديات الدول النامية كانت تأتي غالبا من قبل أصحاب القرار الاقتصادي الذين تتوجه عنايتهم في المقام الأول إلى ضبط الموازنات والميزان التجاري وميزان المدفوعات وتقليل نسب التضخم وزيادة معدلات النمو وارتفاع معدلات الكفاءة والملاءة المصرفية ... الخ.

تأجيل الالتزامات

وفي المقابل، فإن حركيات التلاعب بمقدرات الشعوب وجدت على مدى العقود الماضية مزيجا غير متجانس من قدرة القرارات "اللا اقتصادية" على التأثير في السياسات الاقتصادية من خلال الإيحاء بحتمية تدخل الحكومات بسياسات مجحفة بجموع المواطنين من أجل رسم صورة وردية للمستقبل دون تقديم أي ضمان على أن هذه الصورة الوردية قابلة حتما للتحقق ، وهنا تنحصر مهارة النظم السياسية في توظيف عملية التفاوض مع سلطات البنك الدولي من أجل العمل على تأجيل قرارات الالتزامات بكل ما هو ممكن ، أو توظيف اللغة السياسية من ناحية أخرى في تحوير الارتباطات من مفهوم لآخر ، بما يضمن مزيدا من الفسحة في الوقت للبعد عن المواجهات المؤذية لسياسات الدول النامية أو لاستقرارها.

وفي السنوات الأخيرة ، ظهر توظيف مكثف لعامل قديم لم يكن يُمارس بمثل ما أصبح يمارس به الآن وهو التدخل الأمريكي السافر الذي يستند إلى حقيقة تشريعية واقعية مهمة ، وهي أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بحكم منصبه هو في واقع الأمر رئيس مجلس إدارة صندوق النقد الدولي، على حين أن من يشغل منصب مدير الصندوق هو رجل تنفيذي فحسب .

غضب الشارع

من قلب هذا المنطق (الدولي / التكنوقراطي) ، كان رهان قيادتي القوى العربية الجديدة المعروفة بسعيها الحثيث للتخلي التام عن الهوية ، فيما وجدت نفسها أمامه من مواجهة غير متوقعة مع الأردن في موقفه الشامخ ، وقد انصب هذا الرهان على قدرة الأداة السياسية للقيادتين المتحالفتين على إحداث مظلة إعلامية من تعبير بصور على أنه تصعيد في غضب الشارع من إجراءات حكومية غير متقبلة لتكون بمثابة الخطوة الثالثة بعد الخطوتين الأولى (التي هي ضغوط حاسمة من صندوق النقد الدولي) والثانية (التي هي استجابة اضطرارية من مسؤولي الحكومة والخزانة الأردنية التكنوقراطيين) .

الملاعب الخلفية

كان تقدير القيادتين العربيتين المتحالفتين أن هذه الخطوات الثلاث ستؤم بشدة وفعالية وضعا حتميا لانقلاب أردني سرعان ما يلحق المملكة الأردنية الهاشمية بمجموعة الدول الفاشلة التي أدخلتها نخبها المتعسكرة في نطاق الملاعب الخلفية للسياسات القاصرة التي تتصور نفسها قادرة على ما لم تتجح فيه الإمبراطوريات الكلاسيكية من قبل .

لكن الوعي السياسي للشعب الأردني كان أقوى بكثير من رياح الخماسين السياسية التي حاول أعداء الأردن والهوية أن يصوروها انفراطا لعقد من الاستقرار الإيجابي القابل للتطور و الارتقاء .

الباب السادس تجارب ملهمة

الفصل السادس عشر الملك البلجيكي المعاصر الذي حل مشكلة السلفية مع الديمقراطية

سنلجأ مباشرة إلى الوصف و التاريخ بعيداً عن التنظير والفلسفة ، مع التعبير عن رأينا في الفصل أو الوصل أو محاولات غيرنا للتوفيق ، فالأمر من وجهة النظر التاريخية أبسط من هذه المحاولات حسنة النية ، في الوقت الذي هو فيه أصعب من أيّ سوء نية. سنضرب المثل ببعض مُنعطفات تاريخية في هذه القضية التي تتكرر من حين لآخر ، والتي يُتوقَّع أن تكون مرتبط الفرس في القضاء على مُستقبل الثورة المُضادة لثورات الربيع العربي.

حرمة الإجهاض

نعرف أن المسيحيين الملتزمين أو الأتقياء أو السلفيين (!) يُقاومون فكرة السماح بالإجهاض بكلّ ما يملكون من قوّة حتى في الحالات التي يثبت فيها بالمرض الوراثي أن الجنين مُصاب بكثير من التشوّهات الخُلقية التي تجعل من حياته عذاباً لوالديه او لوالديه.. نتذكر المثل الواضح الصريح على هذا السلوك السلفي من موقف السيدة سارة بالين التي كانت مُرشحة على لائحة السناتور جون ماكين لمنصب نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في مواجهة لائحة الرئيس أوباما و جو بايدن ونعرف أنها لم تقبل أن تُجهض في جنين كان مُصاباً بنوع مُتقدّم من الأمراض الوراثية، نعرف أيضاً أن "الديموقراطية الأمريكية" جاهدت طويلاً من أجل الحصول على إباحة الإجهاض رغم أن ساسة مُعاصرين لا يزالون ضد هذا التشريع، بعبارة أخرى، فإننا نعرف أن السلفيين من المسيحيين كانوا يقولون ما معناه إنه لا يجوز للديموقراطية أن تُحلّ حراماً أو تُحرّم حلالاً.

بعض السلفيين يحرمون الديمقراطية

ونحن نعرف بالطبع و بالواقع أن بعض الطوائف السلفية الإسلامية تتوقف في معرفتها بالديموقراطية عند هذه النقطة فحسب فتجاهر بالعداء لها و بأن تُحرّم الديمقراطية نفسها، لأنها (قد) تُحلّ حراماً أو(قد) تُحرّم حلالاً.. وهكذا تفتح هذه الطوائف السلفية الإسلامية الباب واسعاً

أمام القبول الإجماعي غير المبرر دينياً ولا خلقياً بحكم الفرد الطاغية ، كما تفتح هذه الطوائف السلفية الإسلامية الباب واسعاً أمام القبول الاضطراري بأقصى أنواع الديكتاتورية والتسلط تحت دعوى أن البديل وهو الديمقراطية (قد) تُحلّ ما حرّم الله .

الحل السلفي

من العجيب في فقه بعض هذه الطوائف أنه إذا جاء الحاكم الفرد وحكم بتحليل ما حرّم الله قفزت هذه الطوائف السلفية برشاقة أو بغير رشاقة إلى الفكرة المدخلية لتعصمها من هذا التناقض الواضح بين مُعتقداتها التي دافعت عنها ، وبين المأزق الذي وجدت نفسها فيه حين قبلت بكلّ عيوب الطغيان والديكتاتورية هرباً من شُبْهة أن الديمقراطية (قد) توافق على قانون أو إجراء يحل ما حرّم الله.

أليست هذه هي الحقيقة على نحو ما نراها في هذا الجدل غير المنشور وغير المشهور بين من يقبلون بالديموقراطية اضطراراً وهم كافرون بها ، وبين من يستسهلون رفضها بسبب شبهة يمكن مناقشتها ، وبين أمثالنا من يدلونهم على أنها بمثابة البديل الأمثل للخلاص من الطغيان؟

اختزال المعنى

تتعقد الأمور حين يسطو المنطق الصوري على ما هو حق للدين ، فيجعل من حكم الديمقراطية بكل منظوماتها مجرد مقابل لفظي لتعبير مبسط ومختزل هو حكم الشعب ، وذلك بدلا مما نقول به وهو أن الديمقراطية هي حكم الجماعة ، وأنها نقيض حكم الفرد الطاغية ، ومن ثم تتفرع أمور المنطق الصوري إلى مسارين خطرين :

- المسار الأول : هو القفز بحكم الشعب إلى معنى آخر هو حكم الغوغاء أو الدهماء وما يستتبع هذا من إسقاط أوصاف الديماجوجية على الحكم الديمقراطي لتشويه معنى الديمقراطية من أجل هدمها أو استبعادها .
- المسار الثاني : شأنك و مميت وهو القفز إلى فكرة الحاكمية قفزا يتجاوز عدة مفاهيم مرتبطة بالفعل "يحكم " [وهي الحكم والتحكيم والتحكم والإحكام والمحاكمة والتحاكم والاحتكام والاستحكام والحكمة والحوكمة والحكومة والتحكيمية] ليضع الديمقراطية في موضع لم تطمح إليه ، وهو مسار فتح الله به على من لا يعرفون العربية حق معرفتها فاستعاروا العقل الغربي في فهم مفرداتها .

الملك يخرج من المأزق

في مقابل هذا التعتت الذي يقف عند الحدود النظرية إليك مثل لمحاولة الالتفاف على هذه "العقدة الفلسفية"، فقد كان الملك بودوان الأول (١٩٣٠ - ١٩٩٣) ملك بلجيكا السابق الذي تولى الملك ما بين ١٩٥١ و ١٩٩٣ مسيحياً ملتزماً أو سلفياً حسب فهمه هو للمسيحية، ومع أنه تزوج في ١٩٦٠ فإنه لم يُنجب، ولم يُعرف عنه أنه سعى إلى الإنجاب بالوسائل التي كانت بدأت تُتاح للإخصاب المُساعد ، لكن هذا الملك الذي كان يتمتع بحضور سياسي كبير قرّر في ١٩٦٠ أن يتنحى عن العرش لمدة يوم واحد ، وذلك ليُفسح المجال للحكومة البلجيكية للتصديق على قانون إباحة الإجهاض، وذلك لأنه كان مُعارضاً للقانون بشدة

البرلمان يعيد الملك

ولمّا كان البرلمان يرى أن الحفاظ على بودوان في منصب الملك يمثل خياراً أكثر فائدة من التخلي عنه، فقد رتب الأمر على أن يتنحى الملك على أن يُعيده البرلمان ملكاً في اليوم التالي مباشرة وهو ما حدث بالفعل.

من الجدير بالذكر أن الملك بيير الثاني (المولود ١٩٣٤) شقيق الملك بودوان هو الذي خلفه بعد وفاته ملكاً لبلجيكا وبقي حتى تنازل في سبتمبر ٢٠١٣ لابنه الملك فيليب الملك الحالي (المولود ١٩٦٠).

الفصل السابع عشر

الهوية الأكثر أناقة بالتقاليد سيرة حياة ملك السويد كارل جوستاف

الاحترام المبكر للتقاليد

يمكن لنا البدء بذكر مفارقة تاريخية جميلة ، وهي أن ملك السويد الحالي الملك كارل جوستاف كان يوصف بأنه الملك اليتيم، كما يمكن لنا البدء بالإشارة إلى أنه صاحب أطول فترة في حكم السويد حتى الآن، كما هو الحال مع ملكة بريطانيا التي تسبقه في تولي العرش بواحد وعشرين عاماً .

ويمكن لنا وصفه بأنه ذلك الملك الذي أجل زواجه من أجل أن يعتلي العرش أولاً ثم يتزوج محبوبته احتراماً للتقاليد التي كان يؤمن بها جده الذي كان هو ولي عهده .

لكن الحقيقة الباذخة في هذا كله هي أن سيرة حياة هذا الملك تدلنا على أن التقاليد الاجتماعية لا تزال (من دون أن ننتبه) تحاول بشراسة أن تتحكم في كثير من التصرفات السياسية على أعلى المستويات مهما أعلن أصحاب القرار عن نيتهم في التخلي عن اقتناعهم بالتقاليد وتمسكهم بها، ذلك أن بعض هذه التقاليد تصدُر عن عقيدة وفطرة ، وليس سهلاً أن تُغيّر الفطرة أو العقيدة.

والمثل الواضح أو الأبرز على هذا الصراع الذي ينتصر للتقاليد ، حتى وإن بدا أنه ينتصر عليها بعد احترامها يتمثل فيما يُروى عن سيرة حياة رجل هو ملء السمع والبصر ، وهو الملك كارل السادس عشر جوستاف المولود سنة ١٩٤٦ والذي يحكم السويد من ١٩٧٣ ، وبالمصادفة البحتة ، فإنه في عامنا هذا (فقط) الذي هو عام ٢٠١٩ يتكرّر الرقمان في تاريخه ، ويتبادلان المواقع ، فهو مولود في ١٩٤٦ ويحكم منذ ٤٦ عاماً ، كما أنه يحكم منذ ١٩٧٣ وقد أصبح عمره ٧٣ عاماً.

وفاة الوالد

خلف الملك كارل السادس عشر جده في عرش السويد، وذلك لسبب بسيط ، هو أن والده الذي كان سيخلف جده توفي في حادث طائرة عام ١٩٤٧ من قبل أن يُصبح الجد نفسه ملكاً، وكان عمر الملك الحالي ٩ شهور فقط ، وهكذا فإنه لما أصبح الجد ملكاً في ١٩٥٠ أصبح الملك الحالي اليتيم يومها ولياً للعهد ، وهو في سن الرابعة.

وفيما بين ولايته للعهد في ١٩٥٠ ، وتوليه الملك في ١٩٧٣ ، تشكلت معارف الملك كارل السادس عشر على أفضل ما تتشكل المعارف الملكية والرئاسية:

- - فقد درس العسكرية في الجيش والطيران والبحرية وحصل على ما يؤهله للعمل في الأسلحة الثلاثة مقاتلاً وبحاراً وطياراً
- - كما درس العلوم السياسية والتاريخ والعلوم الاجتماعية في جامعة ستوكهولم وإيسالا.
- - وعمل في بعثة السويد في الأمم المتحدة في نيويورك.
- - عمل في أحد المصارف في لندن وفي السفارة السويدية في لندن.
- - وعمل في الغرفة التجارية السويدية في باريس وفي فرع شركة الفا لافال السويدية في فرنسا.

لقاؤه بزوجته

في ١٩٧٢ وقبل أن يصبح ملكاً بعام حضر دورة الألعاب الأولمبية الشهيرة في ميونيخ ، فالتقى بزوجته (الألمانية الأب و البرازيلية الأم) ، لكنه رأى ألا يتم زواجه بها احتراماً لعقيدة جده الملك الذي لم يكن من المضمون أن يوافق على خلافته له إذا هو تزوج من غير البيوت الملكية ، وهكذا أجل الملك السويدي زواجه إلى عام ١٩٧٦ ، و كان قد أصبح ملكاً (منذ ١٥ سبتمبر ١٩٧٣) ، وبلغ أيضاً الثلاثين من عمره وتزوج من الملكة سيلفيا ملكة السويد الحالية وأنجبا ولية العهد الأميرة فكتوريا (التي ولدت ١٩٧٧) وشقيقها الأمير كارل فيليب (١٩٧٩) وشقيقتها الأميرة مادلين (١٩٨٢).

حضر هذا الملك النشاط كثيراً من المناسبات العربية وزار سلطنة عمان باعتباره الرئيس الفخري للمؤسسة الكشفية العالمية.

الشقيق الخامس لأربع شقيقات

من الطريف أن هذا الملك الذي أصبحت ولية عهده هي ابنته ، كان الشقيق الخامس لأربع شقيقات يكبرُنه سناً ، لكن ولاية العهد آلت إليه بفضل عقيدة جده في تفضيل الذكور .
ومن الطريف أكثر من هذا أن قصة الملك مع التقاليد التي تغلب عليها بتأجيل زواجه هو نفسه ، تكررّت مع ابنته فكتوريا ولية العهد التي ولدت عام ١٩٧٧ بعد زواج أبويها بعام وعاشت مع زوجها الحالي قصة حب طويلة استمرت ثمانية أعوام ، ذلك أن والدها ظل طيلة هذه السنوات الثماني يرفض الموافقة على زواجها من زوجها الحالي لأنه لا ينتمي لعائلة ملكية ، فلمّا صمّمت

الأميرة ولية العهد على زواجها من حبيبها ، أطلق الملك على هذا الزوج ألقاباً ملكية عديدة ، منها أنه أصبح الأمير دانيال وفارس سيرانيم.

عودة ولاية العهد لابنة

الطُرفة الثالثة في قصة الملك كارل جوستاف مع التقاليد والقوانين ، أن قانون المساواة بين الجنسين في وراثة العرش السويدي صدر بعد ولادة ولديه الأولين، وليه العهد التي ولدت في ١٩٧٧ وشقيقها كارل فيليب الذي ولد في ١٩٧٩، وقد حدث بالفعل أنه عندما ولد الشقيق في ١٩٧٩ سمي ولياً للعهد، لكن بعد شهور قليلة من مولده صدر القانون الذي عدلت به السويد قاعدة اعتلاء العرش ، لتكون بمبدأ التساوي بين الجنسين، ليكون العرش للابن الأكبر بغض النظر عن جنسه ، وهكذا فإنه بمقتضى هذا القانون تقدمت الأميرة فكتوريا إلى المركز الأعلى في خط الخلافة (حسب تعبير وراثة العرش) بل إن الأمر تعدى هذا لما هو منطقي ، وإن بدا غريباً على الذهن الشرقي، ذلك أنها حينما أنجبت ابنتها الوحيدة الأميرة استل (٢٠١٢) ، أصبح ترتيب هذه الابنة هو الترتيب التالي في خط الخلافة ، وذلك على حساب خالها الذي كان قد سُمي ولياً للعهد لعدة شهور عقب ولادته.

التقاليد المحترمة لنفسها

هكذا سارت الأقدار مع الملك كارل جوستاف:

- فقد الملك كارل جوستاف والده (١٩٤٧) وهو لم يزل رضيعاً ذا تسعة شهور (ولد ١٩٤٦).
- أصبح الملك كارل جوستاف ولياً للعهد في سن الرابعة (١٩٥٠) ، رغم أنه الشقيق الأصغر لأربع شقيقات.
- لم يتزوج الملك كارل جوستاف إلا ١٩٧٦ ، بعدما أصبح ملكاً (١٩٧٣) حتى لا يمنعه جده الملك من وراثة العرش لزواجه من خارج الأسرة المالكة.
- أنجب الملك كارل جوستاف ابنته الكبرى (١٩٧٧) وابنه (١٩٧٨) ، فأصبح الابن ولياً للعهد ، لكن القانون صدر بتعديل خطوط الوراثة فأصبحت ابنته الكبرى هي ولية عهده.
- قاوم الملك كارل جوستاف زواج ابنته وولية عهده من أسرة غير ملكية ، لكنه رضخ بعد ٨ سنوات من إصرارها .
- أنجبت ابنته ولية عهده في (٢٠١٢) ابنة أصبحت بمقتضى القانون الوريث الثاني للعرش قبل خالها

الفصل الثامن عشر

يوم أعلنت فرنسا استسلامها واشتعل اللوم علنا بين ديغول وبيتان

المارشال بيتان

كان المارشال بيتان ١٨٥٦ - ١٩٥١ شخصية عسكرية فرنسية مرموقة حقق انتصارات فرنسية في الحرب العالمية الأولى ولقب بلقب بطل فردان لأنه قاد تلك المعركة الفاصلة التي تحقق بها النصر لفرنسا ، وتولى بعد هذا قيادة الجيش ووزارة الحربية ورئاسة الوزارة ورئاسة الدولة ، وبلغ تكريم فرنسا له أقصاه حين انتخب ١٩٢٩ عضوا في الأكاديمية الفرنسية ليشغل المقعد الثامن عشر في مجمع الخالدين ، كان هذا الجنرال الذي أصبح سيء الحظ هو القائد الذي أعلن ١٩٤٠ استسلام فرنسا لألمانيا مقدما مبرراته المنطقية التي قد نستمتع ببلاغة ألفاظها وصدق وقائعها في بيانه الذي سننشره هنا .

أما الجنرال شارل ديغول ١٨٩٠ - ١٩٧٠ فكان لا يزال بعيدا عن المجد في ذلك اليوم ، لكنه سرعان ما أمسك بزمام الأمور ورفض فكرة الاستسلام ، وتولى قيادة المقاومة الفرنسية ضد النازي ، وقد بدأ هذه المقاومة ببيانه الواضح الذي سنطالعه بعد قليل ، وفيه هاجم بيتان وحمله كل المسئولية عن الأوضاع التي أدت للاستسلام .

والحق أن بيان الجنرال ديغول بيان بليغ ولا يقل بلاغة عن بلاغة بيان المارشال بيتان مع الاختلاف المتوقع أو الطبيعي بين بلاغة أو مقتضيات الحماسة (التي سماها النقاد العرب شعر الحماسة) وبين بلاغة الأمر الواقع بثقله وصدقته وتبريراته .

بيان استسلام فرنسا

أذاع المارشال بيتان الكلمة الآتية عندما هزمت فرنسا في الحرب العالمية الثانية:
" أيها الفرنسيون في فرنسا وفيما وراء البحار ، أخاطبكم اليوم لأوضح لكم الأسباب التي دعتنا إلى عقد اتفاقيتي الهدنة الأولى مع ألمانيا منذ ثلاثة أيام والثانية مع إيطاليا أمس .
" إن الأمر الذي يجب التنويه به قبل كل شيء هو الوهم الخادع الذي بنت عليه فرنسا وحلفاؤها آمالهم بشأن قواتهم العسكرية الحقيقية وأثر السلاح الاقتصادي وحرية البحار والحصار والموارد التي كانوا يستطيعون الحصول عليها . فالיום - كما في أمس - لا تُكسب الحرب بواسطة الذهب والمواد الأولية فقط .

" إن النصر يتوقف على القوات والمعدات وكيفية استخدامها .

" وقد دلت الحوادث على أن ألمانيا كانت متفوقة في هذا الميدان في مايو سنة ١٩٤٠ تفوقاً ساحقاً كنا لا نستطيع أن نواجهه عند ما دارت رحى المعركة إلا بعبارات التشجيع والأمل .

" وقد انتهت معركة الفلندر بتسليم الجيش البلجيكي وسط القتال ومحاصرة الفرق الإنجليزية والفرنسية. وقد قاتلت هذه الفرق الأخيرة قتال الأبطال، وكانت مؤلفة من خيرة قوات جيشنا. وبالرغم من مقدرتها لم تتمكن من إنقاذ جانب من رجالها إلا بالتخلي عن معداتها".

" ودارت المعركة الثانية على نهري الراين والسوم، وللثبات في هذا الخط قاتلت ٦٠ فرقة فرنسية لا تحميها التحصينات ، ولا تؤيدها الدبابات - تقريباً ١٥٠ فرقة ألمانية من فرق المشاة و ١١ فرقة من الفرق المصفحة ، فاخترق العدو خطوطنا في بعضة أيام، وجعل قواتنا أربعة أجزاء واجتاح القسم الأكبر من الأراضي الفرنسية، وكانت ألمانيا في حكم المنتصرة عندما دخلت إيطاليا الحرب، وأقامت ضد فرنسا جبهة جديدة صمد لها جيش الألب.

" وعندئذ اتخذ نزوح اللاجئين شكلاً يفوق ما يتصوره العقل، فقد انضمت عشرة ملايين من الفرنسيين إلى مليون ونصف مليون من البلجيكيين وأخذوا يتدفقون على مؤخرة جبهتنا في أحوال اختل فيها النظام وسادها بؤس لا يوصف"

الدافع الحقيقي إلى الاستسلام

" وابتداء من ١٥ يونيو اجتاز العدو نهر اللوار وانتشر في بقية أنحاء فرنسا. فأمام مثل هذه المحنة كان يجب أن تكف مقاومة الجيش"

وكان على الحكومة أن تختار بين أحد أمرين: إما البقاء في مكانها أو مغادرة البلاد. فتداولت في الأمر وقررت البقاء في فرنسا للمحافظة على وحدة شعبنا وتمثيله أمام العدو، ذلك لأنها رأت أن واجبها في مثل هذه الأحوال يقضي بالحصول على هدنة مقبولة باستشارة روح الشرف والعقل لدى العدو. وقد عقدت الهدنة وانتهى القتال.

" وفي يوم الحداد الوطني هذا نتجته أفكارى إلى جميع القتلى، وإلى جميع أولئك الذين تألموا في أجسادهم وعواطفهم من جراء هذه الحرب. إن تضحياتهم قد احتفظت بسمو علم فرنسا وطهارته فهم لا يزالون أحياء في ذكرياتنا وقلوبنا"

الشروط قاسية

" أما الشروط التي اضطررنا إلى قبولها فهي قاسية. فسيحتل جزء كبير من أراضينا مؤقتاً وتقيم ألمانيا حاميات في شمال بلادنا وغربه من بحيرة جنيف حتى تور ، ثم على طول الساحل

من تور، حتى جبال البيرينييه. ويجب أن تُسرح جيوشنا وأن تُسلم معدّاتنا وتحصيناتنا وأن يُجرد أسطولنا من سلاحه في موانينا."

"وستُجرد القواعد البحرية من سلاحها في البحر الأبيض المتوسط

سلامة الشرف

" أما الشرف فلا يزال سليماً. فلن يستخدم أحد طائراتنا ولا أسطولنا. ونحن نحفظ بالوحدات البرية والبحرية اللازمة للمحافظة على النظام في فرنسا ومستعمراتها، وستظل الحكومة حرة، ولن يدير شؤون فرنسا إلا الفرنسيون"

"لقد كنتم على استعداد لمواصلة القتال - إنني أعلم ذلك - ولكن الحرب كانت لا محالة خاسرة في فرنسا"

" لا تنتظروا كثيراً من الدولة فهي لا تستطيع أن تعطي إلا ما تتلقاه.

"اعتمدوا في الوقت الحاضر على أنفسكم وفي المستقبل على الأبناء الذي ستربونهم؛ وعلينا أن نجدد فرنسا، فأظهروها للعالم وهي ترقب خصمها وتعمل في هدوء وكرامة."

" لقد أتت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملدات واللهو ما شيدته روح التضحية، فإني أدعوكم قبل كل شيء أن تنهضوا بأخلاقكم."

" أيها الفرنسيون، إنكم لقادرون، وإني أقسم لكم أنكم سوف ترون فرنسا جديدة تنبعث من حرارة إيمانكم."

رد الجنرال ديغول الصاعق والقاسي على المارشال بيتان

قال الجنرال ديغول في حديثه الإذاعي الذي قدمه للفرنسيين رداً على بيان المارشال بيتان:

" في ساعات الخجل والغضب هذه، يجب أن يرتفع صوت واحد للرد عليك"

" لقد ضربت فرنسا بقوات العدو الميكانيكية، فإذا كانت فرنسا لا تملك هذه القوات الميكانيكية، فغلطة من هذه؟"

" لقد كنت ترأس هيئاتنا الحربية بعد انتهاء الحرب في عام ١٩١٨، وكنت قائداً عاماً حتى ١٩٣٢، وكنت وزيراً للحربية في عام ١٩٣٥، وكنت أكبر شخصياتنا العسكرية. ولكنك لم تطلب أبداً إدخال الإصلاح اللازم لهذا النظام البالي"

"إن قبول العبودية لم يكن يتطلب بطل فردون [يشير ديغول إلى اللقب المشرف الذي كان بيتان قد أحرزه] ، بل أي إنسان كان يستطيع عمل هذا".

" إنك رفضت موارد الإمبراطورية البريطانية والمساعدة الأمريكية الكبيرة، وقد لعبت لعبة فاشلة وألقيت بالأوراق وكأنه لم يبق في أيدينا أية ورقة نافعة"
" كيف تنتظر من فرنسا النهوض مرة أخرى ، وهي تحت أحذية الألمان الثقيلة ، وأحذية الرقص الإيطالية؟"

سنعيد خلق فرنسا

"ألا إن فرنسا ستنهض مرة أخرى في الحرية والنصر"
" إن أسلحتنا منضمة إلى أسلحة حلفائنا ستعود بالنصر، وسنعيد خلق فرنسا ."

الباب السابع تجارب خطرة

الفصل التاسع عشر الأولوية الأولى في استراتيجية السعوديين الجدد

التفوق على المؤسس

بعيدا عن المقدمات المطولة والموجزة ، فإن أول أولويات هذه الاستراتيجية بتعبير مهذب هو توحيد دول الجزيرة العربية في كيان واحد على نحو ما أتم الجد (توحيد) كيانات نجد و الحجاز وحائل وعسير والقصيم وعنيزة وبريدة في كيان واحد هو المملكة العربية السعودية . وربما أن كثيرين من قراء هذه المدونة لا يعرفون أن هذه الكيانات التي أشرتُ إليها كانت مُستقلة تماما عن بعضها البعض إلى أن حارب الملك عبد العزيز بن سعود جيوشها وجماعاتها أو فاوضها واحدة بعد أخرى، وضمها لسلطانه و ملكه بالتدريج، ثم أعلن مولد المملكة السعودية ١٩٣٢ ، بعد ثلاثين عاما من الحروب التي تلت انتصار الرياض الذي حققه في ١٩٠٢ .

الفكرة الاستراتيجية المسيطرة على خطط السعوديين الجدد هي الانتهاء سريعا من ضم كل هذه الكيانات تحت راية ملكه هو ، ليكون بمثابة الملك القوي متفوقا على جده الملك عبد العزيز و متجاوزا بهذا كل أعمامه الذين لم تزد مساحة أرض المملكة في عهدهم إلا زيادات طفيفة لا تكاد تذكر.

من أجل هذا تُموّل جماعة السعوديين الجدد مجموعات عمل استراتيجية على أعلى مستوى لرسم خطوات هذه الفكرة بكل ما هو مُمكن من الوسائل المشروعة ، وغير المشروعة قبل المشروعة. وقد تنامت إلى علمي بعض دلائل الجهود المبذولة في هذا السبيل جعلتني أعلن عن آراء بدت غريبة عند طرحها ، لكنها سرعان ما تحققت شيئا فشيئا.

وعلى سبيل المثال فإنه لما بدأ الحديث عن انفتاح اجتماعي في السعودية ، جزمْتُ بأن هذا الانفتاح سيكون متجاوزا لكل ما هو موجود في أية دولة أخرى، بما في ذلك الدول المُصنّفة عالميا على أنها دول شبه إباحية، ولم تُخَيّب الأيام ظني.

النمر الأسود

وحيث بدأ الحديث عن افتتاح السينما على نحو سريع جزمتم بأن أول فيلم سيُعرض سيكون هو فلم النمر الأسود ، وكان السبب ببساطة شديدة ، هو أن هذا الفيلم يحكي قصة حفيد شجاع جسور لا يخاف أي شيء و يُعيد التذكير بمجد الجد..

ولم يكن صعبا على صنّاع استراتيجية السعوديين الجدد أن يصلوا إلى هذا الفيلم الذي هو حديث الإنتاج وحديث التداول ، لكنّه يُعبّر عن الغرض تماما ، وإن كان الفيلم قد عرض دون أن ينتبه العرب لهذا الربط الذي كان مطلوباً . .

وقد تعجّب كثيرون من الأذكى المتابعين من أن يصدّق حدسي إلى هذه الدرجة، ولم أكن في حاجة إلى التبرير أو التفسير ، فقد سار الأمر في سياق كثرة حدوث ما أتوقّعه .

وقد شغل هذا التفسير المريح المتابعين عن أن يبحثوا عن مضمون الفيلم وعلاقته بغير المعلن في الاستراتيجية الدؤوبة.

لكن الأمر لم يخل من التعجب .

اعتقال العلماء

فيما قبل ذلك اندلعت صدمة الإعلان عن اعتقال العلماء وتبنيبت النية لإعدامهم ، وهو ما كان نظراً إليه المتابعون على أنه جموح في الخيال حين تنبأت به قبل شهر من حدوثه .

وعلى الخط نفسه حين جاءت صدمة الإعلان عن الحفلات الغنائية بالقرب من المقدسات، توقعت أن السيدة ماجدة الرومي ستكون أولى المدعوات ، لا لفتها ولكن لعلاقتها الكنسية المطلوب مُغازلتها بمثل هذه الدعوة.

لكن الأمر ، مرة أخرى، لم يخل من التعجب .

نموذج الإسكندر

على أن هذا المشروع الاستراتيجي الضخم لا يقف عند حدود الاستيلاء على كل أراضي الجزيرة العربية ، لكنّه سيبدأ بها، لأنه ينتوي أن يُحقّق ما يتجاوز فتوحات الإسكندر الأكبر الذي اختاره المُخطّطون ليكون المثل الأعلى لزعيمهم ، بدلا من أن يختاروا له زعيم المغول الذي حقّق أكبر مساحة من الانتشار أو زعيم العثمانيين سليمان القانوني أو نابليون .

وقد كان الإسكندر حلاً نموذجياً لأنه انتصر على من لا يأتي لهم ذكر بعد ذلك، وهذا هو جوهر الانتصار الذي يتمناه السعوديون الجدد في معاركهم ، أي أن تُحرق الأرض تماما على نحو ما في أرض اليمن السعيد التي ندعو الله لها بالنجاة.

كان لا بد للمشروع من تأمين يتمثل في تجنّب الأعداء الخارجيين باللجوء إلى استقطابهم ، وفي هذا السبيل ، فإن جماعة السعوديين الجدد بذلت في استرضاء إسرائيل ما لم تحلم به إسرائيل على الإطلاق ، كما أنها بذلت في تقديم الوعود الجادة لإيران جهوداً جبّارة جعلت إيران مطمئنة إلى قبول السعوديين الجدد بسيطرتها على خمس عواصم عربية بدون أي نزاع حقيقي. لكن الأمر لم يخل ، مرة ثالثة ، من التعجب المثير للتساؤل العميق هذه المرة .

برنارد لويس

ماذا عن أمريكا ؟

وهي كما يقولون الجوكر الكبير في الموضوع، وهل سيتعارض هذا مع ما أقرّه الكونجرس منذ ١٩٨٤ من الخطة التي اقترحها برنارد لويس لتقسيم السعودية نفسها؟ الإجابة من أبسط ما يمكن رغم تعقيدها، فالتقسيم المطلوب إحدائه في السعودية والجزيرة العربية سيكون أسهل بعد توحيد هذه الكيانات ، وذلك على نحو ما يتم في صناعة الحلوى ، حين يأتي التقسيم النهائي والدقيق بعد صناعة الكيان الحلواني الكبير.. وعلى الرغم من بشاعة دلالة هذا المثل التوضيحي ، فإن هذه هي مقومات العقليّة الأمريكية في التقسيم ، فهي لا تبدأ بشعار التقسيم وإنما تُنجز التقسيم من خلال توحيد زائف يتبعه تقسيم صاعق ، وهو ما يُحاول السعوديون الجدد أن يُنجزوه.

سلطة أبوظبي

يأتي هنا سؤال يهّم العرب وإعلاميهم في المقام الأول ، وهو السؤال عن حقيقة موقف أبوظبي التي تبدو في حالة زواج كاثوليكي مع سلطة السعوديين الجدد ، على الرغم من احتفاظها بمشاعر التحفظ العدائي ضد السعودية ! الإجابة بسيطة أيضا ، وهي أن سلطة أبوظبي تعلم كل تفاصيل المخطط ، لكنها آثرت منذ البداية أن تستثمر المعرفة في توثيق علاقاتها بمن في داخل النظام السعودي ، وهو ما يكفل لها من الفوائد ما لا يمكن تحقيقه لو أنها أعلنت المعارضة للسعوديين الجدد أو الحياد من موقفهم.

هكذا فإن أبو ظبي التي لا تكفّ عن توثيق العلاقة مع السعوديين الجدد تفعل هذا من منطلق الرغبة في القدرة على قراءة السعوديين الجدد ، وليس من منطلق الموافقة على خُطته وعلاقاته، أي أنها تفعل هذا من قبيل التمكّن من اتقاء الآثار الجانبية في الوقت المناسب، وتؤمن أبو ظبي كل الإيمان و من دون أدنى شك بأنها هي بالذات أول ما يُفكّرون في ابتلاعه وإنهاء دوره.

الآثار الجانبية

ومن الحق أن نقول أن تكتيك أبوظبي في هذه الجزئية مفيد للمنطقة من حيث إنه يمثل قناة تسريب مضمونة .

بقي أن نُشير إلى أن المشروع يقتضي إضفاء أكبر قدر ممكن من المهابة على تصرفات السعوديين الجدد وفي هذا الصدد ، فإن العمل الجاد على تحقيق هذا الهدف وصل إلى ما وصل إليه في اغتيال جمال خاشقجي إرهابا لكل صاحب قلم، كما وصل إلى ما وصل إليه في التّجني على علماء الدين الذين لا يتوقّع منهم أن يُوافقوا على الانتهاكات الدينية أو الخُفية. وتحت شعار تأمين الجبهة الداخلية ، فإن ترسانة الإجراءات السعودية التي نفذها و سَيُنْفِذها السعوديون الجدد تتجاوز أية جهود مثيلة أو شبيهة على مدى التاريخ المكتوب كله، لكن الهدف الاستراتيجي الكبير من وجهة نظر صاحبه يستحقّ ما هو أكثر من التأمين والتخطيط والترهيب والإنفاذ المُتسارع.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل العشرون هكذا يعملون على تدمير الالتزام الديني

تطبيق الحدود

منذ ١٩٣٢ كان الالتزام السعودي بمذهب فقهي ودور ديني وتوجه إسلامي أبرز الأسباب الجوهرية التي ساعدت التقدم الاقتصادي والاجتماعي في المملكة ، وكان الأمريكان والغربيون يلاحظون تدني معدلات الجريمة الاجتماعية إلى درجة الندرة ، وانحسار مستويات الجنايات المالية والفساد البيروقراطي إلى حد كبير ، فكانوا بالطبع والمنطق يبحثون عن السبب ثم يخلصونه لأنفسهم على طريقتهم في بلورة الفوارق الفاصلة أو العوامل الحاسمة فيذكرون كلمة واحدة هي : "الحدود" مشيرين بها إلى التزام حكومة المملكة بقوانين تفرض عقوبات صارمة على من يتجاوز الحدود التي يمتناها أي مخطط اجتماعي لتوكيد الشعور بالنجاح ، ومن ثم تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والارتقاء بالمعدلات البشرية بالمواكبة للطفرة البترولية.

لم يكن كبار الساسة في العقود الماضية يتصورون أن بإمكانهم أن يؤثروا تأثيرا مباشرا على اعتقاد السعوديين فيما ينفعه من الشريعة أو القانون، ومع هذا فإنهم لم يكونوا سعداء بهذا الاستقرار الاجتماعي المتاح للسعودية ، على الرغم من أنه يصب في مصلحتهم.

تأملات المخابرات الأمريكية في سلاح القوة

لكن الأجهزة المخابراتية الأمريكية بأهدافها الأربعة المعروفة (تأليب الأقليات ، والعبث في ديانة الأغلبية ، وتشجيع الانقلابات العسكرية ، وإثارة النزاعات الحدودية) لم تتوان في يوم من الأيام في البحث عن الثغرات التي يمكن لها أن تنفذ منها إلى هذا النسيج لتمزيق جزء منه، ثم ترقيعه بطريقة منفرة، ومن ثم العمل على ثغرة جديدة ورقعة جديدة.

دور الموارنة

اعتمد الأمريكان في فترة من الفترات على طائفة الموارنة ، باعتبارهم قد استوعبوا خبرات يهود الدولة العثمانية كنموذج للصراع من الداخل ، بيد أن الموارنة (إحقاقا للحق) لم يجدوا أن هذا الدور يتواءم مع ما باتوا ينشدونه من وفاق في لبنان التي ذاقت هي نفسها كثيرا من الفتن بسبب رعونة بعض قادتهم منذ السبعينات .

وقد رأى الموارنة أن تجربتهم السعودية لا تتناسب في معطياتها ولا عواندها مع تجاربهم الفرنسية على سبيل المثال ، وبخاصة أن اللبنانيين بطبيعتهم لا يستطيعون التوافق مع جمود الحياة الاجتماعية الظاهر في السعودية الحديثة.

فكرة المهرجانات الثقافية

وفي مرحلة تالية ، فإن تجربة البؤر المحددة في البحرين عبر الجسر البحري اقتضت في مُجملها على عطلات نهاية الأسبوع من دون أن تشهد اتصالاً قادراً على إحداث تغيير اجتماعي يهز من ثوابت المُعتقد الديني الذي حافظ السعوديون على شكلياته. وهكذا بدأ الأمريكان مرحلة ثالثة بالعمل من خلال ما يُسمى بأفواج المهرجانات المصرية الذين كرسوا فكرة الاحتفاليات المظهيرية ، ممتدين بها إلى خيام مهرجان الجنادرية الذي كان الملك عبد الله نفسه يريعه ويرأسه منذ ما قبل وصوله إلى الملك. اكتشف الأمريكان أن السعوديين يوكلون أمر حياتهم الترفيهية في القاهرة والإسكندرية وأشباهها من العواصم العربية الحية إلى طبقة من العسكريين السابقين القادرين على رعايتهم في تعاملاتهم مع الأجهزة البيروقراطية التي لا تكف عن استنزافهم بحب وبغير حب وعن التحرش بهم بسهولة أو بخشونة..

وهكذا فإنه في أعقاب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ بدأ اتصال ذي قاعدة عريضة مع من أصبحوا بعد سنوات قليلة يُمتلون كريمة مجتمع الانقلابيين المصريين ، وبدأت الحوارات عن إمكانية قيام الجيش بدور شبيه بالدور الذي تقوم به هيئة الأمر بالمعروف بطريقتهم معاكسة للهدف ، لكنها أكثر إرضاء للسلطة ، و اكتشف السعوديون علاقة السلطة بشيوخ الفضائيات والمحليين وأنصاف المفكرين ، وهي العلاقة المدعومة بمجموعة المنافع التبادلية المؤكدة لفكرة حصرية السلطة في المقام الأول ، فهم الذين يملكون وهم الذين يدخلون ويخرجون ويُصرحون..

احتلال سعودي إماراتي

هكذا جاء الانقلاب العسكري المصري في سياقه الطبيعي كاحتلال سعودي إماراتي (سعماراتي) من طراز بدائي وبدوي ، فلم يكن أصحاب النفوذ في الرياض على استعداد لأن يبدؤوا أي علاقة جيدة على أساس جديد يختلف عما عرفوه واستقروا عليه في السنوات العشرين الأخيرة من عصر مبارك ، بعد رفع العقوبات العربية عن مصر ودخول هذه العلاقات منذ حرب الخليج رحلة شهر العسل الطويل.

أصبحت "التخمرات المكتومة" في الجنادرية بمثابة مؤشر لما ينبغي على السلطة السعودية أن تشرع فيه من تبديل ثوبها الوقور إلى ثوب آخر يُرضي القوى الكبرى ويستجلب مزيداً من حمايتها، هكذا جاءت رؤية ٢٠٣٠ لتطرح نفسها بهذا الفهم الذي كان بحاجة إلى صياغات لم تكن صعبة ولا بعيدة عن المتناول.

تصوير إنجاز فقهي

هكذا بدأ الحديث عن قيادة المرأة للسيارة ، وكأنه إنجاز فقهي لولي العهد الذي كان هو نفسه قد أبدى نفوره من الفكرة ذاتها قبل شهور ، لكنه في ظل الظهور بمظهر العصرية رأى في الفكرة باباً من الأبواب السهلة..

وحين فكر المخطط أو القائد المسئول عن جماعة التفكير الاستراتيجي في المضي خطوة إلى الأمام ، فإنه أعلن افتتاح السينما، مع أن الذكاء السياسي كان يقتضي تسمية الأمر باسمه الحقيقي وهو عودة السينما ، حيث كانت هناك دور للسينما فيما قبل ١٩٧٩ ، لكن صناعة النجومية لا تقبل أن تقول بإعادة الافتتاح ، وإنما هي تنحو إلى القول بالأولية من باب إرضاء الغرور ، وتحقيقاً لمظاهر الزعامة وجدارتها.

كان الأمر يتطلب تنظيم دورات توجيهية لعلماء الدين تؤهلهم لفهم الهدف السياسي من محاربة الإسلام "السياسي" وتسمع منهم للضوابط التي يمكنهم أن يقترحوها ليكون قلبهم مطمئناً، ولم تكن هذه الدورات التأهيلية تحتاج لأكثر من شهر على أقصى تقدير..

الإسراع في تدمير الماضي

لكن الحلفاء في أبو ظبي وعواصم أخرى كانوا يرون أنه لا بد من الإسراع في تدمير الماضي مع هذا التحديث، وهكذا كان لا بد لرؤية ٢٠٣٠ من تحقير العلماء بسجنهم وتعريضهم للاتهام والإعدام على حين فجأة، والتقرب بدمائهم إلى من يعلنون عداؤهم للإسلام جهاراً نهاراً من قبيل الرئيس الأمريكي الذي لم يتوان عن وضع السعودية ضمن الدول التي يضايقها بتصرفاته بدءاً من منع الهجرة ومنع التأشيرات وانتقاد المناهج والتحقير من شأن القيم.. إلخ.

القبول بالابتزاز

بدأت الصورة النهضوية مشوهة إلى أبعد الحدود ، فالرؤية المفترضة أنها ثابتة تبدو وكأنها متناقضة حتى مع نفسها ومع ذاتها ، فهي تقبل بالتحقير ، وتقبل بالابتزاز ، وتقبل بالتطاول ، بل ترحب بهذا كله تحت دعوى ما تسميه الصداقة ، بينما الطرف الآخر الذي هو في تقديرها صديق لا يقر بهذا ، وإنما يتحدث عن مصلحة اضطرارية..

بدأت رؤية ٢٠٣٠ في تعاملاتها الأولى كأنها تضحي بما في يدها من عوامل القوة دون أن تحصل على أي مقابل معقول من قبيل إنهاء أو إلغاء قانون جاستا أو السماح بزيادة سعر البترول إلى سعر عادل أو حتى تلقي دعم استخباراتي حربي حقيقي في اليمن يُمكن القوات السعودية من إحراز أي نصر تكتيكي يحفظ ماء الوجه لصاحب رؤية ٢٠٣٠ ويُصوره قائدا عسكريا قادرا على النجاح.

فكرة التفيت

لم تنل الرؤية أي مقابل لما قدمته من الأموال ومن التنازلات الماسة بالهوية ، بل إنها جعلت بقاء النظام نفسه مطروحا بصفقة و صلف على بساط البحث الاستخباراتي في ظل رغبة الحلفاء (في أبوظبي وغيرها) في اقتسام ما يستطيعون اقتسامه من أرض المملكة نفسها ، وذلك على الرغم من نجاح المرحلة الأولى من عهد الملك سلمان ، فيما بدا كأنه الحصول النهائي على جزيرتين مصريتين ، بينما يبدو في الأفق أن الأمر لم يكن إلا طُعما خبيثا من الصياد الحليف ، قبل أن يضطلع هذا الحليف بدوره القادم حتما في تفيت كيان كبير.

الفصل الحادي والعشرون هل تبقى جماعة السعوديين الجدد لو أبادت الإخوان نهائياً؟

فكرة مسيطرة

أصبح في حكم الحقيقة المطلقة التي لا تحتل التأويل ولا النفي الجزئي ، أن جماعة السعوديين الجدد حريصة كل الحرص هي ومن تحالف معها على إبادة جماعة الإخوان المسلمين وشببها في كل مكان، وأصبح من المعروف والمصرح به أن عقيدة هذا الحلف القوي تجاه جماعات الإسلام الإسلامي تتمثل في أزمة وجود، فقد بات من المؤكد لعقولهم على يد صناع استراتيجيتهم أن وجود جماعات كالإخوان هو ما يُهدد وجودهم ويُضعف قدرتهم على الاستمرار في حالة الوجود التي يستمتعون بها .

وهنا ينبغي على كل دارس للعلوم السياسية أن يمتد ببصره لنهاية الطريق ليتأمل نهاية مسلسل سياسات جماعة السعوديين الجدد الراهنة بعيداً عن التفاصيل المثيرة وغير المتوقعة في الأحداث المتلاحقة .

فكرة مغلوبة

و بعيداً عن الانزلاق في مناقشة صواب مثل هذه الفكرة أو عدم صوابها ، أقصد فكرة تهديد الإخوان لوجود جماعة السعوديين الجدد ، وبعيداً عن الحديث عن صُعبوبة قبول نجاح معطيات الفكرة المغلوبة على أرض الواقع في ظل انتعاش ترسانات الأسلحة والعلاقات الدولية التي يملكها الحلف السعودي الإماراتي ويستطيع تنميتها من خلال الملائة المالية المعبرة عن حالة الثراء المفرط والنفوذ المرتبط بتوظيف الاستثمارات والمشتريات ، وهو ما يُساعد هذا الحلف الوليد على توريث أطراف دولية مؤثرة من مُنتجي السلاح والراغبين في بيعه..

بعيداً عن هذا كله وبعيداً عن التورط الدولي أو التواطؤ الدولي الذي أصبح يُعلن عن نفسه بمواربة مقصودة أو بلا موارد حين يفقد الحاجة الديبلوماسية إلى المواربة..

و بعيداً عن الخطوات الأخيرة المُتصاعدة التي تورطت فيها جماعة السعوديين الجدد وحلفاؤها على أرض اليمن وفي ليبيا وعلى ما هي مقدمة عليه أو مُتعلقة له في الجزائر، وما هي تواقه أو مشوقة إلى تحقيق درجات ما من التواطؤ الصريح فيه ضد المسلمين العزل في مالي و ماينمار ونيجيريا والصومال وإفريقيا الوسطى وتركمانستان ثم كشمير ، فضلا عن الآمال المُتجددة التي

تراود هذا الحلف من أجل أي نجاح ذي قيمة في تحقيق فلقلة كبيرة أو قلائل متعددة في تركيا وماليزيا وباكستان.

صناعة الحب

إذا أردنا التفكير في النهايات ، فإننا نسأل أنفسنا : هل يُمكن بعد هذه الصور المتعددة من التدرج المتتابع في الشام و التزحلق المنفلت في ليبيا والانغماس المستغرق في اليمن أن نتأمل العالم الإسلامي وقد أصبح علمانياً تماماً.

وقد أصبحت دبي على سبيل المثال عاصمته المُمثلة للقيم العالية المُبتغاة والمُرتجاة ، حيث تتعدى "صناعة الحب" نطاق الإباحة إلى التصنيع والتجارة، وحيث ينشط غسيل الأموال على قدم وساق، وحيث اللغة السائدة هي الإنجليزية وليست العربية أو غيرها من اللغات القومية، وحيث القيم السائدة هي القيم الغربية الطرفية بكل ما فيها من تجاوزات لم يُوافق عليها كثير من الغربيين أنفسهم من قبيل إباحة الإجهاض، وتقنين المثلية، وزراعة التبني، وتفكك الأسرة، وإخفاء التدين، ونفي الدين، و تحبيذ الإلحاد، وإعدام العلماء ، وهدم المساجد ، وإباحة الزنا، وتطبيع الفجور ، وعشق الخمر ، وتشجيع القمار.. الخ .

ونحن نمضي مع هذا الخط لنهائيه على نحو ما نتعامل في فرضياتنا العلمية حين نُجرب عقارا جديداً في التجارب المعملية ثم الاكلينيكية ونرى آثاره الممتدة على المدى البعيد.

تجفيف الإسلام

دعونا إذاً نتصور العالم في ٢٠٣٠ على سبيل المثال وقد تحقّق لجماعة السعوديين الجدد كل ما يحلمون به من تجفيف الإسلام تماماً وتوهج العلمانية بمفهومها الكلي النظري الذي لم يتحقّق تماماً حتى الآن في أوروبا، وقد حولوا الإخوان المسلمون وأشباههم من جماعات الإسلام السياسي إلى طراز من الأحياء المُنقرضة مثل الديناصورات التي نقرأ عنها في المراجع البيولوجية ونُشاهد آثارها في المتاحف البيولوجية ، دون أن نزع أننا رأيناها أو أننا مُتأكدون من أنها عاشت على نحو ما نتصور .

دعونا نتصور أن السعوديين الجدد وحليفهم المهم في أبو ظبي وحلفاءه الموسمييين في واشنطن (فليس في واشنطن دوام) وحلفاءه المُتمترسين في تل أبيب (فليس أمام تل أبيب إلا التمترس مهمما زعمت أنها نجحت في التطبيع) .

دعونا نتصور هؤلاء جميعاً شربوا نخب الانتصار الحاسم والباتّ على الإسلام السياسي وعلى الإخوان وعلى كلّ فكر يتصل بالأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال وحسن البنا وبين باديس

والإبراهيمي والمودودي وسيد قطب وسعيد النورسي وأربكان والغنوشي والترابي ، وما إلى هؤلاء جميعاً الذين تتحوّل أسماؤهم الآن إلى أيقونات مستحقة لضروب من التعذيب والتحقير والنفي والإعدام.

ماذا يبقى

ماذا يبقى للسعوديين الجدد إذا ما قضوا على هذا كلّهُ ؟ هل يبقى له مُلك يتمدّد فيشمل ما يخطط له من ضم إمارات الخليج العربي جميعاً مع اليمن والأردن في مملكة كبيرة أكثر اتساعاً من مملكة جده ، وهل تبقى له ثروة ضخمة تتضاءل أمامها ثروات العالم ، لأنها ثروة غير محدودة وغير ناضبة؟ بل أصبحت بفضل الحروب أعلى ثمناً وأكثر دخلاً؟

للأسف الشديد ، فإن الإجابة التاريخية تختلف عن الإجابة المنطقية.. ذلك أن الإجابة التاريخية تطرّح علينا مباشرة تفصيلات نموذج حالة الأمير عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس الذي حارب كلّ المسلمين ، وحالف غلاة المسيحيين لينصروه على كلّ المسلمين ، فلما انتهى من حرب آخر مملكة إسلامية وانتصر عليها بمعونة المسيحيين قال له هؤلاء المتعصّبون صراحة إنّ دوره هو الآخر قد جاء ، وإنه لم يعد لوجوده مُبرّر وإن عليه أن يسلم المدينة التي بقيت له ، وأن يسلم الثروات الباقية معه ، وأن عليه أن يخرج ذليلاً مدحوراً في موكب إذلال يحتفلون فيه بانتصارهم عليه كأخر حاكم مسلم ، و يكررون الاحتفال حتى الآن .

كان يظنّ أن خلاصه هو الحل

لم يكن عبد الله الصغير قد حسب حساب ذلك اليوم ، بل كان يظنّ أن خلاصه من الحُكام المسلمين المُجاورين له سيجعله الحاكم المسلم الوحيد (في الأندلس) فإذا به يُصبح الحاكم المسلم الأخير في الأندلس ، و لم يكن يُدرك أنه يجني ما حفرت يده.

كانت قيمة عبد الله الصغير منبعثة من وجوده مع مسلمين أقوياء قد يُصالحهم وقد يُهادنهم وقد ينازعهم ، لكنهم يظنّون له ذخراً وسنداً ومصدر حياة ، فأراد بقصر نظره أن يقضي عليهم لا أن يُضعفهم فحسب ، ووجد استعداداً من عدوّه التقليدي ليُعيّنه عليهم فتواطأ وهو سعيد بالغدر وبقتل المسلمين وهو لا يدري أنه يقضي على نفسه.

الفهم المنطقي

نعرف أن الفهم المنطقي عند أي موظف بيروقراطي بسيط في أدنى درجات السلم الوظيفي في أية مصلحة في أيّ بلد في العالم ، هو أنه إذا كانت وظيفته هي مقاومة الرياح والعواصف ، فإنه سوف يفتدّ وظيفته إذا انتهت الرياح والعواصف..

وهكذا يُمكن لنا أن نهمس في أذن السعوديين الجدد بأن الغرب يُريد نظامهم مُهدّداً للإخوان المسلمين (وجماعات الإسلام السياسي) ومُضعفا لهم وشاغلا لهم ومُبدّداً لبعض طاقاتهم ، وذلك من أجل تأمين وجود إسرائيل كقاعدة غربية مستمرة قرب منابع البترول ، فإذا تحمّس هو وابن زايد إلى حد إبادة الإخوان المسلمين والإسلام السياسي في كل مكان على نحو ما يفعلون في مصر وليبيا والجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا وسوريا واليمن والعراق ، فإنهم يشنقون أنفسهم ، وهم يظنون أنهم يشنقون الإخوان..

القضية لا تحتاج إلى مزيد من الإقناع أو التفكير فهي واضحة لكنها ملتبسة بحجاب صناعي من قضايا أخرى تغطي عليها و تشغل أصحابها عنها .

ذلك أن الإخوان وأمثالهم من أية جماعة فكرية يمثلون فكرة لا تموت بموت جيل ، أما هؤلاء الذين يظنون أنفسهم قادرين على الإبادة ، فإنهم هم أنفسهم القابلون للإبادة ، إذا ما تمادوا في إبادة أهل دينهم.

الفصل الثاني والعشرون أزمات خلقها السعوديون الجدد لمستقبل المملكة

توهين الانتماء للإسلام

أولى هذه الأزمات هي توهين الانتماء للإسلام وقد تحقق هذا التوهين من خلال قرارات لا يمكن تفسيرها بغير هذا الهدف. فمن ذا الذي يستطيع أن يزعم مشروعية من أي نوع لمسارعة السعودية إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع إفريقيا الوسطى في الوقت الذي تتصاعد فيه حرب الإبادة التي تشنها جماعات مرتبطة بالسلطة الحاكمة في إفريقيا الوسطى وتعلن عن هذا جهارا نهارا؟ ومن الغريب أن إعلان السعودية عن إقامة العلاقات مع إفريقيا الوسطى لم يتضمن أية إشارة ولو من باب ذر الرماد في العيون إلى أن هذه العلاقات تستهدف التوسط للمسلمين أو حماية المسلمين أو التوصية على المسلمين، وإنما جاء الإعلان استفزازيا حتى في المكان الذي أعلن فيه، وهو مدينة نيويورك الأمريكية التي هي مقر الأمم المتحدة، لكنها في المقام الأول والأخير مدينة أمريكية.

ومن الغريب أيضا أن السعودية نفسها كانت (فيما مضى من عصر الحرب الباردة) حريصة على إعلان قطع علاقاتها أو تقليصها مع الدول الشيوعية تحت دعوى أنها شيوعية، وإن كان المفهوم أن هذا كان في إطار توثيق العلاقة بالولايات المتحدة الأمريكية، وربما يقول قائل إن مثل هذا القرار قرار أمريكي، وليس هذا موضوع مناقشته، لكننا نعرف أن السعودية منذ نشأت في ١٩٣٢ كانت حريصة على الانتماء الإسلامي، ولو من حيث الشكل، حيث كان هذا الانتماء أبرز أعمدة بنية السياسة السعودية.

وهنا فإنه في ظل قرارات من هذا القبيل، فإن السعودية تخسر كثيرا جدا من مكانتها الدولية قبل أن تخسر من مكانتها الإسلامية، وهي لا تخسر في ميدانها كدولة فحسب، بل تخسر معها أوتوماتيا على صعيد إضعاف مكانة المؤسسات الإسلامية الدولية المرتبطة بها، وفي مقدمتها منظمة المؤتمر الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي.

تفسير الحج والعمرة

ثاني هذه الأزمات هي الإسراع في تأكيد استحقاق الوصف القرآني القائل بأن السعودية تصد عن بيوت الله، وليس هذا من باب التجني، فإن التاريخ كله لم يشهد فرض هذه الرسوم والمكوس والضرائب التي فرضها السعوديون الجدد على حجاج البيت الحرام والمعتمرين للتقليل من أعدادهم

، ومن العجيب أن هذا التوجه الذي يزعم الحداثة يلجأ إلى تصوير الأمر على أنه مراعاة للازدحام وكثرة الإقبال على المشاعر المقدسة ، مع أن العالم كله يتنافس الآن من أجل زيادة الإقبال بكل ما هو ممكن من وسائل الترويج السياحي و القبول السياسي ..

فهذه فرنسا و قد تخطى عدد زوارها بفضل السياحة و السياحة وحدها ، حتى تعدى عددهم ثمانين مليوناً ، وإذا كان الأمر أمر مقارنة مستندة إلى المقومات والمعالم والمقاصد المزورة ، فإن السعودية تستحق أن يزورها على الأقل مائتان من الملايين، فالمسجد الحرام حلم كل إنسان مسلم وزيارته وعمرته بطريقة سنوية ليست ترفاً ولا تزيدياً في عصر الاتصالات وسهولتها.

ولو أن السعودية تقدم من التسهيلات لزيارة الكعبة المشرفة ما يناظر أو يقترب من تلك التي تقدمها فرنسا لزيارة برج إيفل لبلغ عدد زوار الكعبة مائتي مليون في العام ..

لكن الردود التي يستسهلها الذين لم يزوروا العالم المتقدم لا تزال تخضع لرؤيتهم الضيقة وخبراتهم المحدودة التي لم تتجاوز مطلع السبعينيات .

ولست أذيع سرا أنني اصطحبت كل من استطعت من المسلمين إلى ميدان قصر النصر الشهير في باريس وأطلعتهم على الحركة المتدفقة في ذلك الميدان دون أي عائق ، فإذا بهم يكشفون من دون استنطاق لهم أن مسألة الحواجز والتعقيدات في موسم الحج ليست إلا وهماً في وهم وتعسفاً في تعسف ، بل وصد عن سبيل الله ..

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يحقق أمني في أن يصل عدد الحجاج والمعتمرين إلى المائتي مليون عن قريب حين تتخلص جماعة الجيل الجديد في السعودية من هذه الأفكار التي تخطأها العصر في كل مكان.

أهل السنة والجماعة

ثالث هذه الأزمات هي الإخراج المفاجئ للمؤسسة الدينية التقليدية في السعودية عن قصد من أهل السنة والجماعة ، مع أن هذا الانتماء كان (ومن المفترض أنه لا يزال) هو الصفة التي حرصت عليها المملكة طيلة عدة عقود ، وقد يكون هذا الإخراج والدور الرسمي في إحداثه غريباً أو غير مفهوم ، لكنه مع الأسف هو الحقيقة، ذلك أن مؤتمر جروزي الذي انعقد في الاتحاد الروسي (بما يوحي به من ظلال حقبة الاتحاد السوفييتي) في جمهورية مسلمة هي الشيشان بتنظيم وتنسيق الإمارات (في الظاهر أو المفهوم) لم يكن يستهدف إبعاد جماعات الإسلام السياسي من قبيل الإخوان المسلمين وحزب الإصلاح وأمثالها من مظلة أهل السنة والجماعة ، لكنه كان

يستهدف الوهابية نفسها ، وكان ذلك المؤتمر ينجز هذا بتمويل من جهات سعودية استتريت كالعادة خلف الإمارات أو جعلت الإمارات قفازا ليدها الباطشة..

و حين انعقد المؤتمر فجأة وأعلنت توصياته بسرعة لم يتنبه أحد إلى هذه الحقيقة الشاذة ، لكنني بقراءة متعمقة و متكررة للتوصيات و من واقع فهم واسع للنظريتين السياسية والإسلامية ، لم أجد صعوبة في اكتشاف اليد السعودية المختفية في كيان هذا المؤتمر، وسرعان ما اكتشفت وجود الحكومة الرسمية بوضوح من خلال المرتبطين بجماعة الجيل الجديد المعلن لخصامه مع أقوى موروثات الحاضر من الماضي القريب.

تجاوز تقسيم السنة والشريعة

والشاهد في الأمر أن مثل هذا المؤتمر بداية وليس نهاية، وهو في حقيقة الأمر لا يستهدف إقرار مبدأ وإنما التشكيك في مبدأ، والغاية الحقيقية منه أن تهتز الأرض الصلبة التي يقف عليها تقسيم السنة والشريعة (الذي أجاد الأمريكان توظيفه طيلة أربعين عاما) لئنبت أرضا أخرى لتقسيم جديد يفرق ما بين سنة وسنة.. والذين يعرفون أثر التعليم الديني في خلق المذهبية يدركون ما لا يتصور الآخرون إدراكه من أن التعليم الديني على مذاهب مختلفة هو وحده الكفيل بإسلام غير مذهبي، أما التعليم الديني على مذهب واحد ، فإنه كفيل بتعصب يقود إلى التكفير، ومن تم إلى الشرك نفسه أو الكفر نفسه ، وذلك في ضوء المفهوم العميق الذي أرسته توجيهات النبي عليه أفضل الصلاة والسلام بأن من كفر أخاه فقد باء بها أحدهما ، وهو ما يعني ببساطة و وضوح أن من يكفر المسلم فهو كافر.

ولست أزعم مجدا إذا قلت إنني حتى في دروسي الطبية أنبه إلى حقيقة وخطورة الإفراط في التعريفات، فالإفراط في الحديث عن التوحيد قد ينتهي ضمن عمليات فلسفية ومنطقية ورياضية متتالية (بألية عقلية يسهل فهمها) إلى نوع من أنواع الشرك الظاهر والعياذ بالله.

ومما يؤسف له أن تعامل جماعة ابن سليمان من خلال معاونيهم أو مراجعهم مع أمور العقيدة الإسلامية يمضي بها في طريقة النقائص المقصودة، وهو أسلوب وظفه علماء الاجتماع الذين أدوا أدوارا استعمارية في عصور الإمبريالية.. وأظن أن مثل هذا الدور لم يعد له محل في عصرنا الحالي، لكن جماعة ابن سليمان بالطبع لا يعرفون عواقب اندفاعاته

المحتويات

هذا الكتاب	٥
الباب الأول	٩
هل تتحدد الهوية بإرادة فردية ؟	٩
الفصل الأول	٩
مساحات الاختيار في الهوية السياسية	٩
الهوية والاستقرار	٩
ثورة شيوعية أمريكية ؟	٩
الموروثات	١٠
تبخر الأوهام	١٠
الطبقة العاملة	١١
تقليل خطوط الاتصالات	١١
نظم التأمين الصحي	١١
الوعي المتزايد يمنع فرض إيديولوجية	١٢
صياغة السلام النفسي والمجتمعي	١٢
الفصل الثاني	١٣
إرادات الشعوب ليست صلصالا في يد القوى الكبرى	١٣
النحت في الصخر	١٣
أكذوبة التصلصل	١٣
الاختراق الفكري بطيء المفعول	١٤
نسيج القماشة السوفيتية	١٥
تجارب الحياة المعاصرة	١٥
تغيير الخبراء أم السياسيين	١٦
الفصل الثالث	١٧
فكرة التنكر للهوية	١٧
الهروب من التجنيد الإجباري	١٧
توفيق الأوضاع	١٨
الانسلاخ الكامل	١٩
الاستشارات النفسية	١٩
يحترم الديموقراطية لا الهوية	٢٠
الباب الثاني	٢١

هل استأصلت العسكرية فرصة الديمقراطية العربية ؟	٢١
الفصل الرابع	٢١
أزمة الديمقراطية في السياسة العربية المعاصرة	٢١
استعمال المصطلح	٢١
عداء الديمقراطية	٢١
الفاشية والعسكرية معا	٢٢
هل تتطلب التنمية التضحية بالديموقراطية	٢٣
التنظيمات السرية	٢٤
الفصل الخامس	٢٥
كيف تهدم نتائج الثورات المضادة مستهدفاتها!	٢٥
فكرة تشويه الثائرين	٢٥
التمويل الخارجي	٢٥
استخدام النقيضين	٢٦
إلصاق الإرهاب	٢٦
نزع صفة الشرعية	٢٧
الفصل السادس	٢٩
ماذا بعد أن فقدت الأنظمة العسكرية مبررات وجودها ؟	٢٩
الديموقراطية المكروهة	٢٩
قضية التحرير	٢٩
مشروعية الديمقراطية الغائبة	٣٠
البحث عن مشروعية جديدة	٣٠
التحول التدريجي إلى ملكيات	٣١
الفخاخ المنصوبة	٣٢
الضمانات و المكافآت	٣٣
السياسات الحمائية	٣٣
الباب الثالث	٣٤
الازدواج الحتمي بين الديكتاتورية والعسكرة	٣٤
الفصل السابع	٣٤
دور قيادة الجيش في صناعة الدكتاتورية	٣٤
[دراسة لحالة المشير عامر]	٣٤
معنى التأمل الجاد	٣٤

٣٤.....	التكتيم لا التعتيم.....
٣٥.....	اختياره للواء محمد نجيب.....
٣٦.....	ثلاثة من القادة.....
٣٦.....	اكتشاف الكنز.....
٣٧.....	القدرة على القمع السريع.....
٣٨.....	الفصل الثامن.....
٣٨.....	البدايات العربية في استراتيجية الحروب المعاصرة.....
٣٨.....	التناقض الاستراتيجي.....
٣٨.....	الاكتشاف المتأخر للحقيقة.....
٣٩.....	الخداع التاريخي.....
٣٩.....	الحماسة الطبيعية والمخلصة.....
٤٠.....	حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.....
٤٠.....	الدور الذي افتقدته الدولة العثمانية.....
٤١.....	الرأيان المتكاملان.....
٤٢.....	الفصل التاسع.....
٤٢.....	عشق الديكتاتوريات العسكرية العربية للفشل.....
٤٢.....	الديكتاتورية ليست حكرا على العسكريين.....
٤٢.....	نظرية الحزب الواحد.....
٤٣.....	التصميم الأمريكي على عدم عودة الوفد بالانتخابات.....
٤٣.....	مفارقة سياسية.....
٤٣.....	حجب الانتقادات.....
٤٤.....	المبالغة في تصوير نجاحات وهمية.....
٤٤.....	الديكتاتورية أصبحت غاية في حد ذاتها.....
٤٥.....	السلطة المعنوية.....
٤٥.....	الإقصاء والاستئصال.....
٤٦.....	المظهر والجوهر.....
٤٦.....	الفشل ضمان للاستمرار.....
٤٧.....	الباب الرابع.....
٤٧.....	الهوية وتقلبات الإمبريالية.....
٤٧.....	الفصل العاشر.....
٤٧.....	دور اضطراري يؤديه الرئيس الأمريكي.....
٤٧.....	الشخصيات المحورية.....

٤٧.....	الكاتبولزم البيولوجي
٤٨.....	الهضم والهدم
٤٨.....	القطبية الواحدة
٤٨.....	الأعظم بدلا من الأوحده
٤٩.....	جاذبية العودة إلى الحرب الباردة
٥٠.....	البحث عن بطولة مسرحية
٥٠.....	العلاج بالصدمة
٥١.....	الفصل الحادي عشر
٥١.....	الجاسوسية ما بين الهجان و لورنس العرب
٥١.....	عصر حصرية الإرسال
٥١.....	زهو الستينيات
٥٢.....	الصورة النمطية للجاسوس
٥٣.....	لورنس العرب
٥٣.....	التعاطف
٥٣.....	المصدر الأول للمعلومات التاريخية
٥٤.....	الإبهار
٥٤.....	صورة العرب الذهنية الشائعة
٥٥.....	الفصل الثاني عشر
٥٥.....	إسرائيل في أسوأ أحوالها لكن العرب لا يتصورون
٥٥.....	تأجج العداوة الشعبية
٥٥.....	الاستعداد بالاستدعاء
٥٦.....	الحرب الأهلية
٥٦.....	الشعارات الزائفة أجدى من التزلف
٥٧.....	أهداف لا تمثل النجاح
٥٧.....	ما بين الاحتضان والاحتقان
٥٨.....	الظواهر المتناقضة
٥٩.....	الباب الخامس
٥٩.....	إعادة تشكيل الهويات
٥٩.....	الفصل الثالث عشر
٥٩.....	الاستعداد بأنساق الوحدة الأوروبية؟
٥٩.....	منظمة الأمن والتعاون الاقتصادي في أوروبا
٦٠.....	حلف شمال الأطلسي

٦٠.....	مجلس أوروبا
٦٠.....	منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية
٦٠.....	الاتحاد الأوروبي
٦٠.....	الشنجن
٦١.....	اليورو
٦١.....	العضويات السبع
٦١.....	المجموعة الأولى ١٣ دولة (٢٦٪) تتمتع بالعضويات السبع كلها
٦١.....	المجموعة الثانية ٧ دول (١٤٪) تحقق ست عضويات
٦٢.....	المجموعة الثالثة ٦ دول (١٢٪) ، تحقق خمس عضويات
٦٣.....	المجموعة الرابعة ٨ دول (١٦٪) ، تحقق أربع عضويات
٦٣.....	المجموعة الخامسة ٥ دول (تمثل ١٠٪) تتمتع بثلاث عضويات
٦٤.....	المجموعة السادسة ٩ دول (١٨٪) وهي الدول ذات النقطتين
٦٤.....	المجموعة السابعة دولتان (٤٪) ذات نقطة واحدة أو أقل:
٦٥.....	الفصل الرابع عشر
٦٥.....	الثورات العربية المضادة والخروج البريطاني
٦٥.....	التقديم الجذاب
٦٥.....	التصوير
٦٦.....	بدء التورط ثم التطور فيه
٦٦.....	الديماجوجية تنتصر على البرجماتية
٦٧.....	الطوفان
٦٨.....	الدعاوى السفهية
٦٨.....	الهجرة
٦٩.....	الهجرة العكسية
٧٠.....	الفصل الخامس عشر
٧٠.....	الأردنيون والاستقرار الناضج
٧٠.....	العلو والغلو
٧٠.....	فن الممكن وليست فن التبعية
٧١.....	محور الاعتدال
٧١.....	نظرية الاستسلام المريح
٧٢.....	تأجيل الالتزامات
٧٣.....	غضب الشارع
٧٣.....	الملاعب الخلفية
٧٤.....	الباب السادس
٧٤.....	تجارب ملهمة

٧٤.....	الفصل السادس عشر
٧٤.....	الملك البلجيكي المعاصر الذي حل مشكلة السلفية مع الديمقراطية
٧٤.....	حرمة الإجهاض
٧٤.....	بعض السلفيين يحرمون الديمقراطية
٧٥.....	الحل السلفي
٧٥.....	اختزال المعنى
٧٦.....	الملك يخرج من المأزق
٧٦.....	البرلمان يعيد الملك
٧٧.....	الفصل السابع عشر
٧٧.....	الهوية الأكثر أناقة بالتقاليد
٧٧.....	سيرة حياة ملك السويد كارل جوستاف
٧٧.....	الاحترام المبكر للتقاليد
٧٧.....	وفاة الوالد
٧٨.....	لقاؤه بزوجته
٧٨.....	الشقيق الخامس لأربع شقيقات
٧٩.....	عودة ولاية العهد للابنة
٧٩.....	التقاليد المحترمة لنفسها
٨٠.....	الفصل الثامن عشر
٨٠.....	يوم أعلنت فرنسا استسلامها واشتعل اللوم علنا بين ديغول وبيتان
٨٠.....	المارشال بيتان
٨٠.....	بيان استسلام فرنسا
٨١.....	الدافع الحقيقي إلى الاستسلام
٨١.....	الشروط قاسية
٨٢.....	سلامة الشرف
٨٢.....	رد الجنرال ديغول الصاعق والقاسي على المارشال بيتان
٨٣.....	سنعيد خلق فرنسا
٨٤.....	الباب السابع
٨٤.....	تجارب خطيرة
٨٤.....	الفصل التاسع عشر
٨٤.....	الأولوية الأولى في استراتيجية السعوديين الجدد
٨٤.....	التفوق على المؤسس

٨٥.....	النمر الأسود
٨٥.....	اعتقال العلماء
٨٥.....	نموذج الإسكندر
٨٦.....	برنارد لويس
٨٦.....	سلطة أبوظبي
٨٧.....	الآثار الجانبية
٨٨.....	الفصل العشرون.....
٨٨.....	هكذا يعملون على تدمير الالتزام الديني
٨٨.....	تطبيق الحدود
٨٨.....	تأملات المخبرات الامريكية في سلاح القوة
٨٨.....	دور الموارد
٨٩.....	فكرة المهرجانات الثقافية
٨٩.....	احتلال سعودي إماراتي
٩٠.....	تصوير إنجاز فقهي
٩٠.....	الإسراع في تدمير الماضي
٩٠.....	القبول بالابتزاز
٩١.....	فكرة التفتيت
٩٢.....	الفصل الحادي والعشرون.....
٩٢.....	هل تبقى جماعة السعوديين الجدد لو أبادت الإخوان نهائيا ؟
٩٢.....	فكرة مسيطرة
٩٢.....	فكرة مغلوطة
٩٣.....	صناعة الحب
٩٣.....	تجفيف الإسلام
٩٤.....	ماذا يبقى
٩٤.....	كان يظن أن خلاصه هو الحل
٩٤.....	الفهم المنطقي
٩٦.....	الفصل الثاني والعشرون.....
٩٦.....	أزمات خلقها السعوديون الجدد لمستقبل المملكة
٩٦.....	توهين الانتماء للإسلام
٩٦.....	تعسير الحج والعمرة
٩٧.....	أهل السنة والجماعة
٩٨.....	تجاوز تقسيم السنة والشيعة

كتب للمؤلف

في تاريخ العلماء و تراجمهم

- الدكتور محمد كامل حسين عالما ومفكرا وأديبا [إصداران مختلفان]
- سيرة حياة علي مصطفى مشرفة [ثلاثة إصدارات مختلفة]
- سيرة حياة العالم الأديب د. أحمد زكي [إصداران مختلفان]
- الدكتور علي باشا إبراهيم
- الدكتور نجيب محفوظ رائد أمراض النساء والتوليد
- الدكتور سليمان باشا عزمي أول أطبائنا الباطنيين
- الحكيم الجراح: سيرة حياة د محمد عبد اللطيف [طبعتان]
- عاشق العلم: د. أحمد مستجير

في تاريخ العلم

- أفاق الطب الإسلامي: رؤية علمية وتاريخ فلسفي
- تاريخ مجمع الخالدين: لغة عربية وتقاليد فرنسية
- رؤساء المجامع اللغوية العربية
- الجامع الأزهر باعثاً لشرارة النهضة الموسوعية العربية الحديثة
- الشمعة الأمريكية في نهضة الشام الثقافية الحديثة
- دليل الخبرات الطبية المصرية وتاريخ التعليم الطبي في مصر
- تكوين العقل العربي: مذكرات المفكرين والتربويين
- أقوى من السلطة: مذكرات أساتذة الطب
- كيف أصبحوا عظماء : دراسات وراثيات [طبعتان]

في تاريخ الفكر الاسلامي

- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
- محمد الخضر حسين وفقه السياسة في الإسلام
- الشيخ الطواهري والإصلاح الأزهرى
- أصحاب المشيختين: سيرة خمسة جمعوا بين المشيخة والافتاء
- الأزهر الشريف والإصلاح الاجتماعي والمجتمعي
- العيش من العاصفة: الباقوري والبهى وعبد الناصر
- حوارات الدين والطب والسياسة
- استشراف إشكاليات المستقبل الاسلامي

في تاريخ الحقبة الليبرالية وتراجم اعلامها

- زعيم الأمة مصطفى النحاس باشا وبناء الدولة الليبرالية
- علي ماهر باشا ونهاية عصر الليبرالية
- محمد محمود باشا وبناء دولة الأقلية
- إسماعيل صدقي باشا
- عثمان محرم مهندس الحقبة الليبرالية المصرية
- المقامر و المغامر و المكابر : ثلاثة زعماء مصريين
- الشركاء المتشاكسون في ثورة ١٩١٩
- القضاء والرئاسة في زمن السياسة : ثمانية من رجال الدولة

- على مشارف الثورة: مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية
- في كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية
- في رحاب العدالة: مذكرات المحامين في عصور مصر الحديثة
- في ضوء القمر: مذكرات قادة العمل السري والاعتقالات
- العمل السري في ثورة ١٩١٩ مذكرات الشبان الوفديين
- **في تاريخ العسكرية المصرية والامن القومي**
- النصر الوحيد: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣ [طبعتان]
- الأمن القومي لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث [طبعتان]
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ [طبعتان]
- في أعقاب النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ - ١٩٧٢
- قادة الشرطة في السياسة المصرية [طبعتان]
- عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط في غير الحرب
- القائد الشهيد عبد المنعم رياض [إصداران مختلفان]
- صانع النصر المشير أحمد إسماعيل : مايسترو العبور [إصداران مختلفان وطبعات متعددة]

في تاريخ حقبة ١٩٥٢

- أهل الثقة وأهل الخبرة: مذكرات وزراء الثورة [إصداران مختلفان]
- نحو حكم الفرد: مذكرات الضباط الأحرار [إصداران مختلفان]
- الثورة والحرية: مذكرات المرأة المصرية [إصداران مختلفان]
- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
- دهاليز الناصرية
- سيد مرعي: شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح
- شهيد النزاهة الثورية: عبد اللطيف البغدادي
- جمال سالم: نشوة السلطة
- زكريا محي الدين: بلاغة الصمت
- الدافع والدافع والدافئ : صلاح سالم وكمال الدين حسين و حسين الشافعي
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء
- يساريون في عصر اليمين: مذكرات قادة الفكر اليساري المصري
- تحت الأرض وفوق الأرض: غربة اليسار المصري
- وشائج الفكر والسلطة : تأملات في الإنسان والدور

في التاريخ العربي والإسلامي

- الفلسطينيون ينتصرون أخيرا
- إفريقيا الساخنة في الحرب الباردة
- سوريا ولبنان قبل الناصرية والناصرية
- البصيرة التي تجاوزت الحصار
- **في الحوار الإسلامي**
- المسلمون والأمريكان في عصر جديد
- الربيع العربي والخريف الأمريكي: دراسات تشريحية للتوازنات المستحدثة
- حتى لا تتكرر الحروب الصليبية: رؤية استشرافية لإرهاصات متنامية

- استئصال سرطان الإسلاموفوبيا
- ظاهرة الحقد على الذات : صراع السلطة والهوية في مجتمع إسلامي

في تاريخ الحكومة

- النخبة المصرية الحاكمة (٢٠٠٠- ١٩٥٢)
- كيف أصبحوا وزراء: دراسة في صناعة القرار السياسي
- الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم [إصداران مختلفان]
- البنیان الوزاري في مصر ١٨٧٨- ٢٠٠٠ [إصداران مختلفان]
- المحافظون [إصداران مختلفان]
- التاريخ يفشي أسراره: دراسات وآراء في السيادة والسياسة
- التشكيلات الوزارية في عهد الثورة

ثورة يناير والربيع العربي

- أحلام اليقظة: الصراع الاجتماعي في ثورة يناير
- السياسة الغائبة في ثورة حاضرة: متي تكتمل ثورة يناير؟
- إشراقات الربيع العربي: استعراض تاريخي لصعود فكرة الثورة
- أصداء ثورات الربيع: قياسات معيارية للموجات الثورية

الثورة المضادة

- العصف المأكول: حكومات أسرعت بثورة يناير
- الهباء المنثور: السلطة والنخبة عقب ثورة يناير
- بحران لا يلتقيان: السياسة والقانون بعد الثورة
- الديموقراطية المحسوبة: ائتلافات والتفافات
- التشوّهات الانقلابية الهيكلية : تحليلات موضوعية للثورة المضادة
- كيمياء الثورة المضادة: تحليلات نسيجية للبنية الاجتماعية

في كتابة التاريخ والمؤرخين

- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامي [إصداران مختلفان]
- النجوم المتعاقبة في كتابة التاريخ المعاصر
- النوافذ المتلونة في كتابة التاريخ المعاصر
- الزوايا الكاشفة في كتابة تاريخنا المعاصر
- الانطباعات الذكية في كتابة تاريخنا الثقافي والفني : يرحمهم الله: [إصداران مختلفان]
- كيف رأت ثورة يوليو صورتها في المرأة

في الفكر التربوي

- آراء حرة في التربية والتعليم
- الإصلاح الجامعي: الجودة من أجل البقاء
- بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون
- في حدائق الجامعة: مذكرات خريجي جامعة القاهرة في عقدها الأول
- مستقبل الجامعة المصرية

في الفكر التنموي والاقتصادي

- التنمية الممكنة: أفكار لمصر من أجل الازدهار
- الصحة والطب والعلاج في مصر [إصداران مختلفان]
- مستقبلنا في مصر: الحلول الجزيئة هي الأجدى أحيانا [إصداران مختلفان]

- القاهرة تبحث عن مستقبلها
- عقبات التنمية العربية: دراسة حالة وحادة
- الأخسرون أعمالاً: الاقتصاد والفساد في مصر
- ثلاثية السياسة والصناعة والفن : مذكرات أساتذة الهندسة

الوجدانيات والرحلات

- أوراق القلب: رسائل وجدانية
- أوهام الحب: دراسة في عواطف الأنثى [٣ طبعت]
- رحلات شاب مسلم [٣ طبعت]
- شمس الأصيل في أمريكا [طبعتان]
- حياتي في ألمانيا
- باريس الحبوية: الخيال صنع الحضارة
- باريس الرائعة: الزهور والنور والعطور
- باريس الفاتنة: أصداء باريسية في أدبنا المعاصر
- رحلات في بلاد العرب

في تاريخ الأدب والثقافة والصحافة

- كلمات القرآن التي لا نستعملها : طبعتان
- مجلة الثقافة (١٩٣٩-١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق
- فن كتابة التجربة الذاتية: مذكرات الهواة والمحترفين
- في ظلال السياسة: نجيب محفوظ [٣ طبعت]
- توفيق الحكيم: من العدالة إلى التعادلة
- على هوامش الأدب
- هل انتهى عصر الثقافة الوطنية
- في خدمة السلطة: مذكرات الصحفيين [طبعتان]
- الثورة والإحباط : مذكرات أساتذة الأدب والأدباء
- ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة: من بين سطور حياتنا الأدبية [إصداران مختلفان]
- تسعة عشر أستاذاً وصديقاً، تراجم ١٩ من أعلام مصر
- مصريون معاصرون [طبعتان]
- محمد طاهر الدباغ: أستاذ الجيل في السعودية

في الطب والاعمال الموسوعية

- القاموس الطبي نوبل ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أد محمد عبد اللطيف)
- الببليوجرافيا القومية للطب المصري ١٣ جزءاً
- الوظائف الانبساطية للقلب
- أمراض القلب الخلقية: الثقوب والتحويلات
- أمراض القلب الخلقية الصمامية
- أمراض القلب في المسنين

كتب للناشئة

- المشير أحمد إسماعيل: من الميلاد إلى النصر
- الدكتور علي باشا إبراهيم: رائد الطب المصري
- مصطفى مشرفة

■

Prof. Mohamed El Gawady

ISIN : 0000 0001 2122 604X

Self Hatred Phenom





الدكتور محمد الجوّادى

نناقش في هذا الكتاب ظاهرة عربية حديثة متفردة أسميناها ظاهرة الحقد على الذات ، وهي في جوهرها لا تعدو أن تكون صورة من صور الحرب على الهوية ، يقوم بها بعض أصحاب السلطة من أجل استرضاء أصحاب النفوذ في المجتمع الدولي المعاصر، فيضحون عن عمد ومن دون وعي بعوامل القوة الذاتية من أجل التوافق غير المحبب مع أعداء يصرحون بعداوتهم العميقة لهم ولهويتهم على الرغم من كل ما يبذلونه من أجل الحصول على رضاهم. ومع أننا نؤمن أن للسلطة كل الحق في أن تمارس ما تراه صوابا فإننا لا نملك أن نخفي عجبنا من أن تمتد التنازلات إلى الهوية نفسها، من غير اتعاض بما حدث على مدى التاريخ حين فقدت السلطة وجودها بفقدانها لكياناتها المادية (بعد المعنوية) عندما تخلت عن هويتها، ونحن لا نناقش هذه القضية من خلال التاريخ مباشرة ، وإنما بمحاولة للدراسة الاستراتيجية العميقة للظاهرة

